

جودت سعيد

لا إكراه في الدين

دراسات وأبحاث في الفكر الإسلامي

العلم والسلام للدراسات والنشر

دمشق - سورية



لا إكراه في الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جودت سعيد

لا إكراه في الدين

دراسات وأبحاث في الفكر الإسلامي

إعداد: محمد نفيسة

العلم والسلام للدراسات والنشر

دمشق - سورية

رقم الكتاب	: ١/١.
العنوان	: لا إكراه في الدين.
المؤلف	: حردت سعيد.
إعداد	: محمد نفيسة.
الطبعة الأولى	: ١٤١٨ هـ و ١٩٩٧ م.
عدد النسخ	: ١٠٠٠ / نسخة.
موافقة الإعلام	: ٣٩٤٥٥ / تاريخ: ١٩٩٧/٥/٢٧ م.
الناشر	: مركز العلم والسلام للدراسات والنشر.

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يوزع بالتعاون مع

دمشق - دار الآفاق والأنفس - شارع مسلم البارودي - ص.ب: ٤٧٢٧

هاتف ٢٢١٥١٢٣ فاكس: ٥١١٧٦٠٦

العلم والسلام للدراسات والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٣١,١١١

المحتوى

٩	كلمة الناشر
١١	المقدمة
٢٥	الفصل الأول: حرية الرأي والعقيدة في الإسلام
٢٥	تمهيد
٢٦	فوائد تستنبط من آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
٣١	الأنبياء وحرية الرأي والعقيدة
٣٥	قتل المرتد وحرية الرأي والعقيدة
٤١	الفصل الثاني: الجهاد المشروط
٤١	الاتجاهات العالمية نحو العنف
٤٢	دور الشعوب في مقاومة الاحتلال
٤٣	شرط الجهاد في الإسلام
٤٥	الأمم المتحدة ونازية هتلر
٤٥	استخدام الغرب لليهود
٤٦	التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية في العالم
٤٩	الفصل الثالث: السننية واللاسنية
٤٩	الواقع السيء في العالم الإسلامي
٥٠	تغيير الواقع وتغيير ما بالأنفس
٥٣	الإسلام والانتقال من اللاسنية إلى السننية
٥٤	المسلمون بين السننية واللاسنية
٥٥	القرآن والخوارق
٥٦	المسلمون والتفسير اللاسنني لحياة الرسول ﷺ

٥٧	صعوبة التخلص من اللاسننية
٦٠	نماذج من التفكير اللاسنني في واقع حياتنا
٦٢	أين موطن الداء؟
٦٥	الفصل الرابع: مالك بن نبي بين النص ومشكلات الحضارة (الواقع)
٦٥	تمهيد
٦٥	بدايات التعرف على فكر مالك
٦٧	الانطلاق من الواقع
٦٨	مالك والنظام الفكري السائد
٧١	لا إكراه في التصورات الذهنية
٧٢	مالك ومفهوم العلم
٧٣	الاتجاه النصي والحضارة
٧٥	الطاهر المقدس والدنس الحقير
٧٧	علاقة المسلم بدينه
٧٨	عالم الأفكار وعالم الأشخاص
٨٢	الولادة العضوية والولادة الفكرية
٨٣	الإسلام والمسؤولية الفردية
٨٥	ضرورة إعادة النظر في مناهج المسلمين
٨٧	إقبال ومالك والفكر الديني
٨٩	المسلمون والخوف من محرمات الدين
٩٠	المسلمون وفقدان العلاقة بينهم وبين القرآن
٩٣	الفصل الخامس: اللغة والواقع
٩٣	تمهيد
٩٤	مراحل التكون الفكري للإنسان
٩٨	- ضرورة البحث في الأرض لفهم لغة السماء

١٠٠	دلالة الكلمة ودلالة الواقع
١٠٢	الوهم الصادق والصدق الواهم
١٠٤	مرجعية الواقع وختم النبوة
١٠٦	معرفة التاريخ وفهم الكتاب
١٠٧	صنع السلام بمبادئ الكتاب أم بحقائق الواقع؟
١٠٩	الواقع يغير فهمنا للكتاب
١١١	الفصل السادس: أمراض الفكر في العالم الإسلامي
١١١	استنزاف الذكاء الإسلامي
١١٣	مرض العالم الإسلامي
١١٤	الكلمة والمعنى
١١٦	لغة السيف ولغة العلم
١١٧	الإسلام ومشكلة الحرام
١٢٠	في معنى القانون والحرام
١٢٣	انبثاق المشكلة الإنسانية
١٢٦	قول الحق وإزالة الباطل
١٢٨	عواقب إجازة الغدر والخيانة
١٣٠	أزمة العلاقة بين الدين والسياسة
١٣١	مشكلة شراء الأسلحة وتكديسها
١٣٣	مشكلة التخلف ومشكلة فلسطين
١٣٤	الجهاد النبوي وجهاد الخوارج
١٣٧	وظيفة الجهاد
١٤١	الفصل السابع: حقوق الإنسان في الإسلام
١٤١	حقوق الإنسان وحقوق العباد
١٤٣	أداء الواجب والمطالبة بالحق

١٤٥	حرية الكلمة وحقوق الإنسان
١٤٧	تعامل الأنبياء مع القوانين الظالمة
١٥٠	حقوق أم ضرورات وواجبات
١٥٣	صواب استخدام القوة
١٥٥	انتهاء عصر القتال
١٥٧	الأسئلة والمداحلات
١٦٥	الفصل الثامن: السيف والقانون
١٦٥	العلاقة بين القوة والدعوة والفكر
١٦٦	القانون والقوة
١٦٩	العدالة بين السيف والقانون
١٧١	الجهاد بين السيف والقانون
١٧٤	شريعة القانون وشريعة الغاب
١٧٦	اللاعنف وتغيير العالم
١٧٧	الفتوحات الإسلامية وسيادة القانون
١٧٩	التوحيد والتزام القانون
١٨٢	القانون ونشر الوعي
١٨٣	كل من أخذ بالسيف يهلك
١٨٥	ضرورة تبليغ الأفكار
١٨٧	الإسلام وصناعة القانون

* * *

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر مركز العلم والسلام للدراسات والنشر، أن يفتتح أعماله بنشر كتاب (لا إكراه في الدين) للمفكر الإسلامي جودت سعيد، الذي عُرف بدعوته إلى اللاعنف، واللاسرية، وتغيير ما بالأنفس بالعلم، والانفتاح على المختلف، وقبول الرأي الآخر.

وإن المتتبع لعناوين فصول هذا الكتاب سوف يجد فيه بحوثاً واقعية وسعيًا حثيثاً للوصول إلى العواقب النافعة لأوسع فئات الإنسانية، وللتخلص من أمراض الفكر وعوائق التقدم التي تعاني منها مجتمعاتنا العربية والإسلامية، بسبب مفاهيمها المغلوطة عن الله والكون والإنسان.

ونحن في مركز العلم والسلام، انطلقنا في تسميتنا لمركزنا بهذا الاسم من فهم قرآني لمفردتي العلم والسلام، وللعلاقة الصميمية التي تربط بينهما، فالقرآن يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء ١٧/٣٦]، والعلم بالمفهوم القرآني - كما ورد في الصفحة ٧٢ من هذا الكتاب (هو الذي يكشف الحق، والعلم بمرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطبق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح اللازم عليه)).

والسلام هو اسم من أسماء الله تعالى، ومن السلام جاء الإسلام، ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس ٢٥/١٠] و﴿أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ [البقرة ٢/٢٠٨]، ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا﴾ [النساء ٩٤/٤].

أما العلاقة الصميمية بين العلم والسلام فهي التي يرسمها جودت سعيد في مقدمة كتابه (اقرأ وربك الأكرم) في الصفحة ٩/ حين يضع لكتابه هدفين بعدهما من أهم الأمور وأنبئها: الأول: وضع الإنسان على طريق العلم، والثاني: السلام. ويقول عن العلاقة بينهما: «والسلام وليد العلم، فعن طريق العلم يدرك الإنسان إمكانية إصلاح الإنسان دون إعطابه وتدميره، لأن قليل العلم الذي أعيته الحيل هو الذي يلجأ إلى الهدم والتدمير، وأحياناً إلى فكرة (عَلَيَّ وَعَلَى أَعْدَائِي) بدل أن يتجه إلى العلم الذي سيحول العدو إلى وليّ حميم».

إننا لا نقصد بالعلم ألقاباً وشهادات وأسماء، بل نقصد العلم القرآني الذي يكشف الحق بالعواقب الأنفع: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء ٧٢/٢٦-٧٣]، ولا نقصد بالسلام مفهوماً زمنياً أفرزته أحداث حقبة زمنية قصيرة؛ بل نقصد السلام الذي تسير إليه الإنسانية عبر مسيرة كدحها الطويل، والذي أساسه العلم.

وقد عملنا في مركز العلم والسلام على إعداد هذا الكتاب من أبحاث كتبها الأستاذ جودت سعيد في مناسبات مختلفة، وعرضنا عليه فكرة إخراجها في كتاب يحمل عنوان: (لا إكراه في الدين)، فوافق ووضع له مقدمة تتحدث في فكرة: (لا إكراه في الدين)، وموقعها في القرآن والحياة.

ونحن اليوم إذ ننشر هذا الكتاب نسأل الله تعالى أن يجعله فاتحة خير لأعمالنا المقبلة، والله ولي التوفيق.

الناشر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى والأمين بالقسط من الناس..
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
[البقرة ٢/٢٥٦].

الأفكار، إنتاج الأفكار، إنتاج المعنى بحيث يصير للوجود معنى، كل هذه
قضايا كبرى، ولكنها غير متيسرة لنا في الظروف التي نعيشها في مجتمعاتنا التي
ترتبت على قمع الأفكار الجديدة.

يذكر توينبي مثلاً من عالم الحيوان يقرب لنا موضوع القمع الذي يمارس على
الفكر المخالف فيقول: إذا جرحت دجاجة وسال منها الدم الأحمر في فطيع
الدجاج، فإن باقي الدجاجات ينقرنها في موضع الجرح حتى تموت، ثم يقول:
والبشر كذلك، فهم ينقرون الشخص الذي لا يفكر مثل تفكيرهم. فالشخص
الذي يفكر تفكيراً مخالفاً لتفكيرهم لم يكن يستطيع أن يعيش معهم، لأنهم كانوا
يصدرون عليه حكم الإعدام، ولا زال هذا موجوداً إلى يومنا هذا، وفكرة قتل
المرتد مرتبطة بهذه الأفكار القديمة التي عاشها الناس، وحتى حين جاء الإسلام
فإن الناس لم يكونوا يعرفون أن البشر متساوون، وأن الملك ليس وراثية.

هذه المفاهيم الثورية الكبيرة جاءت كي نعلمها للناس في المستويات الشعبية،

لا أن تبقى في أذهان بعض الفلاسفة فقط، ولكن حتى الفلاسفة لم يكونوا يتصورون تحرير الأرقاء في تلك الأيام.

أخيراً، وبعد معاناة طويلة، بعد أكثر من خمسين سنة من الخوض في مشكلات التدين والحداثة، وإعادة النظر في كل الأمور، بدأت ألمح معان جديدة، بدأت أشعر أن ما جاء به الأنبياء لم يأت في حياة البشر بعد، ولم يستعد البشر لفهمه، كما أنهم لم يفهموه حين نزل عليهم، فقد فهموه على أنه إعجاز، ولم يفهموه على أساس السننية.

بدأ هذا الأمر يتكشف لي، وصرت أبشر بعهد الأنبياء، وما دعوا إليه، وأعتقد أن ظهوره القادم سيكون دليلاً إعجازياً، لكنه ليس خارقاً، فدليله سيكون من عالم الشهادة.

لقد جاء الأنبياء جميعاً بالتوحيد، جاؤوا بـ (لا إله إلا الله)، ففي سورة الأعراف يتحدث الأنبياء جميعاً عن التوحيد، ويقولون لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف ٥٩/٧]، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ٣٦/١٦]، و(لا إله إلا الله) تعني عبادة الله واجتناب الطاغوت.

هذا المعنى، معنى التوحيد، الذي يكثر القرآن من ذكره، يختزل في عبارة: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران ٦٤/٣]، تعالوا إلى المساواة، تعال فإن لك من الحق مثل ما لي، وحين كتب الرسول ﷺ إلى ملوك العالم وزعمائه قال لهم: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾.

إنها آية قرآنية واضحة جداً، ومفصلة في ثلاث جمل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ: تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا

يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿[آل عمران ٦٤/٣]، أي ألا يكون هناك أصحاب امتيازات، أصحاب قوة يفرضون آراءهم على الناس، كلمة السواء هي المساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وأديانهم، كلمة السواء هي العدل أيضاً: ﴿أَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾، وهذا معناه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، والإكراه هو أن أفرض رأيي عليك بالقوة، وهذا معناه أن حرية الرأي والاعتقاد والفكر مصانة.

لقد فك الأنبياء جميعاً العلاقة بين الفكر والعنف، فحرروا معركة الأفكار من معركة الأجساد، واللّه تعالى حمى الأجساد من أن يعتدى عليها من أجل الأفكار، فلم يعط لأحد الحق على جسد الآخر مهما كانت فكرته.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ آية كبيرة جداً، لا يحق لك أن تجبره على رأيك ودينك، وحين تصنع مجتمع اللاإكراه فعليك أن تجاهد الذين يستخدمون القوة ويؤذون الأجساد لأجل الأفكار.

هذا هو معنى الجهاد الذي دعا إليه الإسلام والأنبياء جميعاً، وهذا ما سيتضح للعالم كله في المستقبل.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ تعنى (لا إله إلا الله)، أي أنها تحرير للناس من استعباد بعضهم لبعض، وحتى الأفكار الصحيحة لا يحق لك أن تفرضها، لأن الفكر الصحيح هو الذي يثبت وحده ولا يحتاج إلى فرض.

والعالم صار الآن مهياً لقبول مثل هذه الأفكار، صار مهياً لقبول كلمة السواء، ولكن ماذا لو رفض الآخر كلمة السواء؟ ماذا لو رفض أن يعزل عالم الأفكار عن عالم الأجساد؟

علينا في هذه الحالة أن نلتزم بالفصل بين عالم الأجساد وعالم الأفكار ولو من

طرف واحد، نفرض كلمة السواء، ولا نجيز لأنفسنا ما يجيزه الآخر من الخطأ،
فبالصواب نستطيع أن نصنع الصواب، وبطريق الرشد لا بغيره نصنع الرشد
ونبني المجتمع الراشد.

هذه القضايا بدأت تتبلور لدي بشكل كبير، وصرت أشعر أن المشكلة ليست
مشكلة حاكم راشد بل مشكلة صنع الأمة الراشدة، ولهذا كان النموذج
الإسلامي نموذجاً مختزلاً مقطراً مصفى، نموذجاً صنع في فترة وجيزة وتحت الضوء
وبشكل علني معروف لدى العالم كله من غير أن يخفى منه شيء، وهكذا تميزت
الظاهرة الإسلامية بالوضوح الكامل، فقد صنع النبي ﷺ المجتمع المستقل، وكتب
الصحيفة أو الدستور الذي ينظم العلاقات في المدينة التي كانت تضم المسلمين
وغير المسلمين، وفي صلح الحديبية كتب بنداً يقول: ((ومن أراد أن يدخل في
حلف محمد دخل، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل)) وحلف محمد
ليس هو الإسلام، بل هو تحالف على السلام، على الدخول إلى السلام، وهذا
هو موضوع آية سورة الممتحنة التي تقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ
يُقَاتِلْوْكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوْكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾
[الممتحنة ٨/٦٠]، فقد أعطاهم البر والقسط من غير أن ينظر إلى عقائدهم
وأديانهم، وبمجرد ألا يقوموا بتهجير الناس وإكراههم من أجل الآراء والأعراق
والأفكار. ومثل هذه الآية آية سورة النساء التي تقول: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ
يُقَاتِلْوْكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء
٩٠/٤]، أما إذا كانوا يهجون الناس ويقتلونهم لأجل آرائهم ﴿أُولَئِكَ جَعَلْنَا
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء ٩١/٤].

إنها أمور واضحة جداً، ولكننا لم نستطع أن نفهمها من خلال ثقافتنا
السائدة، ولكن علينا أن نغيبها، فالعالم بحاجة ماسة إليها.

(لا إله إلا الله) هي ألا يكون هناك أصحاب امتيازات في الأرض، ومشكلة التوحيد بهذا المعنى ليست مشكلة سماوية إلهية، بل مشكلة أرضية اجتماعية، والتوحيد هو ألا يكون أحد فوق القانون.

هكذا نستطيع أن نفهم مشكلة التوحيد في هذا العصر، ونستطيع أن نفهم كيف أن إنكار التوحيد هو الذنب الذي لا يغتفر، نستطيع أن نفهم خطر الشرك، وكيف أن الإنسان إذا وقع في الشرك حبطت أعماله كلها: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر ٦٥/٣٩].

إنني أشعر تماماً بأن العالم الإسلامي قد حبط عمله وصار من الخاسرين، مع كل الأعمال التي يقوم بها المسلمون، من صلاة وصيام وزكاة وحج، لأن الامتيازات سيطرت عليهم وملكت قلوبهم، فصار القوي فيهم هو الحق، وهذا هو الشرك المحبط للعمل.

حين ذهبت إلى مصر في الأربعينيات، وكان عمري لا يتجاوز الخامسة عشرة، قالوا لنا: نريد أن ندرسكم التوحيد. ففرحت كثيراً، لكنني أصبت بخيبة أمل حين بدؤوا يدرسون التوحيد بالطريقة المعروفة في كتب العقائد، ولم أستطع أن أفهم هذا التوحيد، لكنني الآن أفهم أن مشكلة التوحيد مشكلة اجتماعية وسياسية، وليست مشكلة غيبية عقائدية. إنها مشكلة المساواة بين الناس.

هذه المفاهيم ينبغي أن تبرز في هذا العصر، لأن آيات الآفاق والأنفس صارت تفرضها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ﴾، لماذا يذكر هذه المشكلة؟ لأنها كبيرة للغاية.

إننا لا ندافع عن الإسلام بالمعنى الخاص من حيث الشرائع، لكننا ندافع عن الإسلام الذي جاء به الأنبياء جميعاً، إنه دعوتهم جميعاً، إنه التوحيد، قد يختلفون في الشرائع، وقد يختلفون في العبادات، وقد يختلفون في القضايا التي يعيشونها، وهذا ليس مشكلة، لأن الشريعة قد تختلف خلال المدة القصيرة من حياة النبي الواحد، فتتغير وينسخ بعضها بعضاً، ولكن: ﴿مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة ١٠٦/٢]، سواء في آيات الكتاب أم في آيات الآفاق والأنفس، فالأنفع هو الذي يبقى، والذي لا ينفع يذهب جفاءً، والشرائع كلها مبنية على العدل ف ((حيثما وجد العدل فثم شرع الله)).

ولهذا فنحن لا ندعو المسلمين فحسب، بل ندعو كل إنسان لديه منطق، ونقول له: تعال إلى كلمة سواء، وكلمة السواء هي أن تقبل العدل وحل المشكلات بالسلم، وأن ترفض القتل والتهجير لأجل الاختلاف في الآراء والأعراق، ومن قبل هذا فإن له ما لنا، وعليه ما علينا، بل أحياناً - حين يصير لي مجتمع - فلنني أستطيع أن أعطيه البر الذي هو أكثر من العدل، وهو المعاملة التي يعامل بها الإنسان والديه.

إنها قضايا كبيرة، وينبغي أن توضح وتتناول من جوانب عدة، وأنا في هذه السطور أضع عناوين فقط، ولعلي أفتح ثقباً لهذه القضايا والمشكلات الكبيرة.

الأنبياء جميعاً جاؤوا بالتنافس في فعل الخير: ﴿وَيَ ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين ٢٦/٨٣] و ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات ٦١/٣٧]، ولكننا حولنا التنافس في فعل الخير إلى تنافس في فعل الشر وكرهية الآخر ومطاردته، وإذا كانت الأجيال القديمة قد كرس التنافس في فعل الشر والخطأ، فينبغي علينا أن نعيد ونكسر التنافس في فعل الخير، وهو أسهل وأقرب إلى النفوس، وآيات الآفاق والأنفس صارت تفرض بذاتها هذا الاتجاه.

ينبغي ألا نبالي، وأن نطرح هذه القضايا، لأن العالم ينتظرها، وينتظر الإسلام، يقول توبيي: ((إذا كان للعالم البشري أن يتحد، فإن الإسلام سيقدم تجربة غنية في كيفية التعايش بين الفرقاء، والتنافس فيما بينهم في فعل الخير))، وأعتقد أن الإسلام بإمكانه أن يعالج العنصريات التي تغلغت في النفوس، رغم كل اللوثات الجاهلية التي لا تزال لدينا، وهي مثل العنصريات، وقد قال ﷺ: ((أربع من الجاهلية لن يدعها الناس: النياحة والتعابير أو التعابير في الأنساب ومُطَرنا بنوء كذا وكذا والعدوى حَرِبَ بعير في مئة بعير فَمَنْ أَعْدَى الأول))^(١)، وقال في العصبية والافتخار بالأنساب: ((دعوها فإنها منتنة))^(٢).

إن لدينا منطلقات للدخول إلى كلمة السواء، ونملك دعماً من الأنبياء جميعاً، ونستطيع أن نكشف الكتب السماوية ونصححها على ضوء آيات القرآن وآيات الآفاق والأنفس، ونستطيع أن نكشف حتى الأنبياء الذين لم يعرفهم التاريخ، نستطيع أن نفهم فيما إذا كانوا من الأنبياء أم لا، ونستطيع أن نعرف الأمرين بالقسط من الناس الذين هم ورثة الأنبياء، فكما يُقتل الأنبياء يقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، لأننا نتخذ بعضنا بعضاً أرباباً.

هذا موضوع كبير جداً، ولكن لأن مستوانا الثقافي لا يزال محدوداً فنحن لا قدرة لنا على التعبير عنه بقوة، رغم أن العالم كله بانتظاره، وهو الآن متهيئ لقبوله، وكما يقول محمد إقبال:

(١) - أخرجه الترمذي في الجنايز، باب: ما جاء في كراهية النوح، وقال: "حسن" (١٠٠١)، وابن حبان في صحيحه (٣١٤٢) وأحمد في مسنده (٧٨٩٥) كلهم عن أبي هريرة.

(٢) - أخرجه البخاري عن جابر في التفسير، باب: قوله: "سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم..." (٤٦٢٢).

والعشق فياض وأمة أحمد
يتحضر التاريخ لاستقبالها

ما ينبغي لنا أن نبالي بكثير من المسلمين الذين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، ويحاولون أن يجعلوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه، ويقولون: ليس الآخرون على شيء، أو لن يدخل الجنة أحد غيرنا. هذه الأشياء فات أو أنها، والقرآن يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء ١٢٣/٤].

هذه حقائق كبيرة ومخفية، ولا بد من إبرازها، مهما حاول الناس أن يعطوا لأنفسهم امتيازات بدون كفاءة، لأن هذه الامتيازات هي الشرك بعينه، وهي فرض الربوبية على الآخرين، ولذلك أقول: سيذكر التاريخ حق النقض (الفيثو)، وسيسجله عاراً وعدم رشد عند هؤلاء الذين لا يزالون يحتفظون به من غير تحجل.

كلمة السواء ليس فيها حق فيثو: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران ٦٤/٣]، ولكن المسلمين لا ينكرون حق الفيثو، بل يتمنون أن يصير هذا الحق لهم.

إننا لا نستطيع بإمكاناتنا الحالية توضيح هذه الأمور، وحتى فلاسفة الغرب وعلماءه لا قدرة لهم على أن يفتحوا أفواههم ليقولوا: إن حق الفيثو خطأ، وينبغي لكي تتحقق المساواة وحقوق الإنسان أن يسجلوا منع حق الفيثو كأول حق من حقوق الإنسان.

هذا ما جاء به الأنبياء، لكن أحداً من المثقفين لا يستطيع أن يرفع صوته به أو يدعو إليه، والجميع يتمنون أن يصير لهم حق الفيثو، وهذا ما يتحدثون به في هذه الأيام من إضافة اليابان وألمانيا وغيرهما إلى قائمة الدول التي لها هذا الحق، وإنني أرى في هذا الحق، حق الفيثو، الشرك الأكبر الذي يعيق مسيرة البشرية، ونحن

ينبغي أن تتوجه إليه أولاً لإزالته من العالم، فإله سبحانه وتعالى لم يقل لموسى: اذهب إلى الفراشة الصغار أو الطواغيب الصغار، بل قال: اذهب إلى فرعون إِنَّهُ طَغَى ﴿[النازعات ١٧/٧٩]﴾، اذهب إلى الطاغوت الأكبر الذي يقول: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ﴿[القصاص ٣٨/٢٨]﴾، ويقول: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتُ آلِهَةً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ﴿[الشعراء ٢٩/٢٦]﴾، ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ﴿[النازعات ٢٤/٧٩]﴾، وأنا أقول: صحيح أن في العالم الثالث طغيان وطواغيت صغار، لكن الطاغوت الأكبر هو الأمم المتحدة التي تعرقل مسيرة العالم، وهي أول ما ينبغي أن ينكر، لأن الطواغيت الصغار محميون من قبل الطاغوت الكبير.

أظن أن هذه القضايا قد نضجت وتهيأ الناس لاستماعها، فينبغي أن نقول فيها مهما كانت عباراتنا تشكو القصور والضعف، علينا أن نطرحها بكل الإيمان والقوة، فالتاريخ يشهد لنا، والذي سيحدث في الأرض سيشهد لنا، وآيات الكتاب تشهد لنا، والأنبياء بسيرتهم وتاريخهم وكتبهم يشهدون لنا.

ينبغي أن نعيد إلى التوحيد معناه، فالتوحيد شيء كبير جداً، إنه المساواة بين البشر، إنه العدل بينهم.

وعلى الشباب أن يحملوا هذا الفكر، وأن يعتدوا به، وأن ينشروه في العالم كله.

وهناك أمر مهم ينبغي أن نتنبه إليه في موضوع الطاغوت فإله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل ١٦/٣٦]، لم يقل: اقتلوا الطاغوت، بل قال: اجتنبوا الطاغوت، لأن الطاغوت لن يكون طاغوتاً إلا بطاعتنا له. هذه الفكرة الكبيرة هي التي جعلتني أنبذ العنف، لأن التخلص من الطغيان لا يكون بقتل الطاغوت، بل بعدم طاعته في المنكر، في المعصية: ((لا طاعة في معصية))^(١)، وهذا أيضاً هو معنى (لا إله إلا الله).

إن العالم كله يربي أبنائه في هذه الأيام على أن يكونوا مثل البندقية أ، السيف بيد الطاغوت، لكن الأنبياء جميعاً رفضوا هذا، وقالوا للناس: لا، أتم لستم بنادق، إن لكم رباً، وإذا جاء من يأمركم أو ينهاكم بما يخالف أمره ونهيه فلا يجوز لكم أن تطيعوه وتنفذوا أمره، كما أنه لا يجوز لكم أن تقتلوه، وإنكم إن لم تنفذوا أوامره فستصنعون المجتمع.

لعل غياب الوعي في هذه النقطة هو الذي ضيع فكر الأنبياء، لأن الطواغيت والذين يدعمونهم نشروا عكس فكرة الأنبياء، والذين يريدون التخلص من الطاغوت بالسبب نفسه الذي سمي من أجله طاغوتاً وهو الإكراه، فإنهم لن يصيروا غير الطاغوت، لأن الرشد لا يأتي إلا بطريق راشد، ونحن كم مرة جربنا إزالة الإكراه بالإكراه؟

إنني في هذه السطور أضع رؤوس أقلام، وأريد للمواضيع التي تطرقت إليها أن تنتشر في مجتمعنا والعالم، وأنا على يقين من أنها سترسخ وستثبت في المستقبل، وسيدعمها كل عقلاء العالم، وكل الذين يفهمون تاريخ

(١) - أخرجه البخاري في الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٦٧٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٩ و ١٨٤٠)، وغيرهما.

الجنس البشري، والتاريخ هو الذي يشهد على صدق الأنبياء، والذي يعرف الماضي جيداً هو الذي يستطيع أن يفهم الحاضر ويتنبأ بالمستقبل.

عليكم أن تتمعنوا برسالات الأنبياء، وإذا كنا نعيش في الغي والإكراه والطاغوت، فلا ينبغي أن يخذلنا هذا، بل ينبغي أن نتعلم من الأنبياء صنع الرشيد بالرشد، وعبادة الله واجتناب الطاغوت.

والحمد لله رب العالمين

جودت سعيد

بئر عجم - ٢٩ جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ.

و ١٠ تشرين الثاني ١٩٩٦ م.

والقهر والتسلط، ويؤمن بالله الذي يعطي الحرية ولا يقهر، ويؤمن بالله الذي يحمي الإنسان من الإكراه، فإنه يكون قد استمسك بالعروة الوثقى، أي اعتصم بالحبل المتين الوثيق الذي لا انفصام له ولا انقطاع.

٤ - حين يقول الله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فإنه يقول هذا عن الدين الذي هو أقدس الأشياء وأعظمها، فمن باب أولى ألا يكون الإكراه في المذاهب الدينية والسياسية والاجتماعية، من هنا يمكن لنا أن نفهم أن حماية الإنسان من الإكراه في الدين حماية له من الإكراه في كل الآراء الصغيرة والكبيرة وهذا موضوع مفيد جداً.

٥ - لقد فهم المسلمون من هذا الحكم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فهموا منه حكم (الإكراه في السياسة) وهذا سمّوا الخلفاء الذين جاؤوا إلى الحكم من دون إكراه وبرضى المسلمين بالراشدين أخذوا بالعبارة التفسيرية الموجودة في هذه الآية ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ فقالوا (راشدون) عن الدين وصلوا إلى الحكم من دون إكراه ولم يطلق المسلمون هذه الكلمة (الرشد) على أي حاكم جاء بالإكراه وهذا موضوع مهم للغاية، وهذا خلق من المسلمين أن اختاروا كلمة الرشد الكلمة التفسيرية لـ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

٦ - لقد صار هذا الحكم مطلباً عالمياً في هذا العصر أيضاً وجميع دساتير العالم اليوم تضع في بنودها الأساسية الأولى حرية العقيدة، فللناس جميعاً الحق في أن يختاروا الذي يرونه أفضل، ويؤمنون بأنه الأصح.

٧ - هذا الحكم ليس في القرآن والدساتير فقط، بل إن التاريخ أيضاً يبين صدقه وصدق تفسيره، لأن الذين كانوا يمارسون الإكراه في الدين سقطوا أمام العالم، ومثالهم في هذا العصر الاتحاد السوفيتي الذي منع الناس من أن يؤمنوا بالدين الذي يرونه. إن هذا الحدث الكبير في هذا العصر بالذات تأييد لحكم

اللّه القديم في هذا العصر الحديث، بل وفي المستقبل أيضاً، سيسقط الذين يمارسون الإكراه في الدين ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ [الإسراء ١٧/٨]، سنة الله في عباده: ﴿سُنُّهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت ٥٣/٤١]. هذه الآية رد على كل الذين يتهمون الإسلام بأنه انتشر بالإكراه، لأن الإسلام لا يزال ينتشر ويتقدم، رغم أن المسلمين ليس لهم سلطان ولا قهر ولا قدرة على الإكراه، إنه ينتشر من دون إكراه، ومع أن المسلمين ضعاف وفقراء فإن الإسلام الذي يقرر ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ينتشر حتى في البلاد التي تشعر بأنها تسيطر على العالم بالعلم والمال أي بقوة المادة وبقوة الاقتصاد. إن الإسلام يغزوهم غزواً حقيقياً من دون إكراه، ويجتذب أفاضل الناس وأحرارهم، وحسبك بروجيه غارودي مثلاً كبيراً في هذا العصر.

٩ - إن من يقبل فكرة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يكون واثقاً من أن دينه سينتشر وسيقبله الناس من دون إكراه وهذه الثقة بصحة دينه وسلامته وموافقته لفطرة الناس، هذا الإيمان هو الذي يجعله يرفض الإكراه، لأن الذي لا يثق بدينه وبأفكاره وبأنها صحيحة؛ هو الذي يتمسك بالإكراه في الدين واستعمال القهر، وهذا موضوع مهم جداً جداً، لأنك إذا خسرت ثقتك بأفكارك وأفكار دينك فأنت خاسر للقضية قبل أن تبدأ بنشرها بالإكراه.

١٠ - من يقبل فكرة لا إكراه في الدين يكون قد وثق بالإنسان وبفطرة الإنسان وبقدرته على الفهم وتمييز الحق من الباطل، والذين لا يثقون بالإنسان وبإمكاناته على التمييز بين الذين يحقرون الناس ويفكرون عنهم ويفرضون آراءهم عليهم.

العالم كله، إذ كيف نستطيع أو نتمكن أو كيف يستمع لنا الناس، وكيف يمكن لنا أن ندعوهم إلى الصلاح والتعاون ونحن المسلمين لا نستطيع أن نصلح ذات بيننا وتعاون فيما بيننا؟!!

لهذا نصيحتي الحارة أن يفهم الشباب هذا الموضوع بجدية وعمق وأن يبدؤوا فوراً في إزالة الكراهية والغل من نفوسهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر ١٠/٥٩]، وأن نبدأ بإصلاح ذات البين أنا وأنت، وأن نبدأ بالتواصل فلا نقطع الصلة، أن نبدأ بالسلام ونلتقي بالقلوب الدافئة المحبة الخالية من الاحتقار ((بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم))^(١) أو أن يسخر منه.

١٤ - لا إكراه في الدين مثل لا إكراه في الحب، الحب لا يأتي عن طريق الإكراه، بل يأتي عن طريق الإحسان، وهذا يوضح لنا أن الإكراه والحب لا يجتمعان، لأنه لا حب في الإكراه ولا إكراه في الحب، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول: لا دين بالإكراه كما لا حب بالإكراه، ولا إكراه في الحب لأن الدين والعبادة مبنيان على الحب والرضا وليس على الكراهية والسخط والنفاق.

ولهذا يخطئ كثير الذين يظنون أن بإمكانهم إدخال الناس في الدين بالإرغام والقهر والإكراه.

١٥ - ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نفي لجنس الإكراه كله، لأن لا نافية للجنس بكل محتوياته، ولا يستثنى منه شيء، حتى يقطع الإنسان الأمل في هذا الموضوع

(١) - أخرجه مسلم في البر والصلة، ٩٨ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

كله، وينبذ الإكراه في الدين نبذاً كلياً حتى لا يبقى شيء في نفس المؤمن.

١٦ - إن من يؤمن بـ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ حقيقة وممارسة يكون موضع ثقة ولا يخشى الناس منه، لأنه لن يكون مصدر عدوان على أحد من أجل دينه ومعتقداته.

١٧ - من هذا كله نفهم أن الآراء والاعتقادات الخاطئة لا تُغَيَّر بالإكراه باليد، بالسلاح، بالقتال، بل بالدعوة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وبالحوار الذي يلتزم فيه المسلم كلمة التقوى بعد كلمة السوء، لأن السوء هو العدل وكلمة التقوى هي الإحسان.

١٨ - كما لا يتحقق الدين بالإكراه، كذلك لا يتحقق الكفر بالإكراه، لهذا فإن المؤمن الذي يُحمل على التلفظ بالكفر بالإكراه لا يصير كافراً، ومن هنا نعلم ارتباط آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل ١٠٦/١٦].

الأنبياء وحرية الرأي والعقيدة:

كيف تتحقق حرية الرأي؟ إن الأنبياء فقط هم الذين سلكوا الطريق الصحيح إلى حرية الرأي، لأن الأنبياء، وهم قدوة العالم في الإصلاح، حين أرادوا أن يحققوا حرية الرأي، كان عليهم أن ينبذوا الإكراه في الرأي، لأن الحرية لا تتحقق مع الإكراه، ولهذا نبذ الأنبياء الإكراه في الرأي ليحققوا حرية الرأي، ولأجل أن يتركوا الإكراه في الرأي كان عليهم أن يتركوا الأمور التي يحصل بها الإكراه وأهمها العنف، وخاصة العنف الذي يقع باليد، ولهذا قال الله تعالى لهم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء ٧٧/٤]. ولهذا منع الأنبياء استخدام العنف في نشر الأفكار أو في فرض حرية الرأي لأن الذي يحاول أن يفرض الرأي بالقوة يكون قد أنكر حرية الرأي، فكان السلوك والتطبيق الذي

[آل عمران ٦٤/٣].

فإنه لا يكون السواء سواء إلا إذا كان عادلاً، فإذا أبحت لنفسك العنف فينبغي أن تبيحه للآخر، وإذا أبحته لنفسك بشرط، فعليك أن تبيحه للآخر بالشرط نفسه وهكذا، هذا هو العدل وهذه هي الكلمة السواء، ولكن الأنبياء لم يتعاملوا بالعدل، بل تعاملوا بالإحسان وهذه هي الطريقة الأكثر نجاحاً، إذا كان العدل ناجحاً فكيف بالإحسان؟ الإحسان ينجح أكثر من العدل، وقد كان من إحسان الأنبياء وأتباعهم أنهم أوجبوا حرية الرأي على أنفسهم وامتنعوا عن المعاملة بالمثل فلم يجزوا الدفاع عن أنفسهم، وقد قال الله لهم ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء ٧٧/٤]، وقال لهم: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى.... كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ﴾ [العلق ٩٦/٩-١٩]، وبنود صلح الحديبية كانت بنوداً مبنية على الإحسان، وكان هذا الصلح فتحاً لأنه أوقف العنف وترك للناس حرية الاختيار وحرية الرأي وحرية الدعوة، حتى أن الرسول ﷺ أعطى للقرشيين من الحق ما لم يعط للمسلمين، في رد من يلجأ منهم إلى الطرف الآخر، وهذا من ثقة المسلمين بسلامة دينهم وآرائهم ومعاملاتهم وكثيراً ما يتجاهل المسلمون هذه الأمور، والسبب في ذلك، والله أعلم، أن ثقة المسلمين بدينهم وآرائهم صارت ضعيفة، فأمنوا بأهمية العنف أكثر من إيمانهم بانتصار الحق حين يتوقف العنف وتترك للناس حرية الرأي والاختيار، وهذا الموضوع ينبغي أن يكثر فيه البحث فكل الذين عندهم علم بالدين والتاريخ سيطمئنون إلى أن الآراء والأديان الصحيحة هي التي ستبقى وأن الآراء والأديان والأفكار الخاطئة هي التي ستذهب جفاء.

ولا بد للدعاة من فهم هذه الأمور بعمق وبعد نظر وصبر وأناة وإلا فلإنهم سيقعون فيما وقع فيه الذين يعارضون الأنبياء من الإيمان بالإكراه في الدين ومنع

من المشكلات الكبيرة في هذا العصر مشكلة قتل المرتد.

وأرى في آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نصاً صريحاً واضحاً على تحريم قتل المرتد، وسبب نزول هذه الآية واضح في منع الإكراه في الدين.

لقد صار قتل المرتد مشهوراً وشائعاً بين الناس، ولكن كونه مشهوراً وشائعاً لا يعني أنه صار صحيحاً. كم هي الأحاديث الضعيفة التي يتداولها الناس بكثرة، وتشتهر على كل الألسن ومع هذا كله فهي ضعيفة، وإذا بحثت عن أصلها بطرق البحث العلمية فإنك لا تجد لها أصلاً صحيحاً قوياً؟!

هذه الآية آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ محكمة قوية واضحة، وكذلك معاهدة رسول الله في صلح الحديبية، فهو لم يطلب من القرشيين أن يردّوا من يلتحق بالمشرّكين من المسلمين ليقتلهم.

وأنا أعترف بأن الجوّ الإسلامي مُشبع بفكرة قتل المرتد، ولكن هذا الجوّ ليس هو مصدر التشريع، وكون حكم قتل المرتد شائعاً بين الناس لا يكفي كي يكون هو الحق الثابت خلال التاريخ.

إن حبنا لقتل المرتدين ليس دليلاً على صدق الحكم وكرهنا لشيء آخر ليس دليلاً على عدم صحته، والرجوع إلى الأدلة وإلى قانون الزيد هو الذي سيكشف الموضوع ويجلي الحكم.

الدليل الكبير الذي يعتمد عليه الجميع هو قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ((من بدل دينه فاقتلوه))^(١).

ونحن إذا أخذنا بالرأي الذي يقول إن الحديث لا يُنسخ القرآن حلّت المشكلة

(١) - أخرجه البخاري عن ابن عباس في الجهاد، باب: لا يُعذب بعذاب الله
(٢٨٥٤).

لأن القرآن ليس فيه قتل من يترك دينه، هذه واحدة، ثم إن هذا الحديث ليس نصاً صريحاً بمعنى أنه يؤخذ منه قتل المرتد من غير تأويل، لأنه لو أخذ من غير تأويل لما جاز لغير المسلم أيضاً أن يغير دينه، إذ ليس المراد ما يدل عليه لفظه وإنما هو شيء آخر حتماً، فهنا تطرق الاحتمال إلى الدليل وهذا يجعل الدليل عن قتل المرتد ضعيفاً وبعيداً، ثم إن راوي الحديث لم يذكر سبب وزمان ومكان ورود الحديث، إذ قد يكون لحالة طارئة معينة، كأن يكون تهديداً لبعض الذين يريدون أن يتلاعبوا مثل الذين ورد خبرهم في القرآن: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران ٧٢/٣]، فيكون حديث الرسول منعا للدخول في الدين لمن لم يؤمن به بل يريد التلاعب، فيكون المراد من الحديث شيئاً مختلفاً تماماً.

ثم كثيراً ما يستشهد بحروب الردة على جواز قتل المرتد، وحروب الردة لم تكن قتلاً للذين ارتدوا، وإنما كانت قتالاً للذين كانوا يريدون القضاء على الإسلام وحاصروا المدينة وهجموا عليها، والقتال غير القتل كما قرره العلماء المدققون.

ثم إن الرق موجود في القرآن في آيات كثيرة ومع ذلك منع المسلمون الرق ولم يروا إلغائه للغاء للقرآن، بل رأوه تحقيقاً لهدف القرآن، وكذلك قتل المرتد بل إن قتل المرتد لم يرد في القرآن، والذي ورد في القرآن أن عقوبته إلى الله في الآخرة ولم يحدد له عقوبة في الدنيا.

ولو أن العالم جميعاً قالوا: سنقتل من يخرج من ديننا فعلياً نحن المسلمين أن نقول: نحن لا نقتله، لأن ديننا بحمد الله أثبت خلال التاريخ كله أنه الدين الذي ليس له مرتدون وأنه الدين الذي يدخل فيه العلماء العلمانيون، والعلماء من الأديان الأخرى.

ألا ينبغي أن يكون هناك حكمة في مثل هذا التشريع؟ فما الحكمة منه بحسب رأي الذين يقولون به؟!.

ثم إن الذين يقولون بهذا الحكم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير مُتَّبِعِينَ الشبهات.

إنهم غائبون عن العالم الذي أظهر الله فيه أن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس بمكث في الأرض.

إن الناس بدؤوا يدخلون في دين الله في هذا الموضوع بالذات، لقد بدؤوا يقبلون شريعة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ من شرائع الإسلام، فهل نتراجع نحن عن هذا التشريع الذي نفخر به على العالم جميعاً؟! لقد قرر الإسلام حرية الرأي والعقيدة والدين قبل أن يعرف الناس معنى حرية الرأي والدين، ثم إنني أعتبر هذا من علامات تخلف المسلمين، وغيتهم عن أحوال العالم، وعيشتهم أفكار القرون الماضية، حيث كان الناس من الذين لا يسمحون للإنسان أن يعيش بينهم إلا إذا كان على دينهم.

ترى كيف ننظر نحن إلى الأديان أو المبادئ التي تقتل من يغيرون رأيهم فيها؟ أليس من الواجب علينا ألا نرتكب الشيء الذي ننكره على الآخرين؟!.

إن العالم الإسلامي لا يخسر شيئاً إن لم يقتل من يخرجون عنه، بل سيخسر إذا أعلن للناس أننا سنقتل من يخرج من ديننا، فكأننا نبقي المسلمين مسلمين خوفاً من القتل!!.. هذا شبيهاً بما يقال من أن الإسلام انتشر بالسيف ولا يبقى إلا بالسيف!!

إنني لا أرى أن تمسك المسلمين بهذا من علامات قوتهم، بل إنه من علامات ضعفهم وعدم ثقتهم بأنكارهم وآرائهم، وإن الأجيال القادمة من ذريتنا

ستضحك منا وستستغرب كم كنا غائبين وعاجزين عن فهم ديننا ودينانا التي نعيش فيها.

وأنا بهذا الرأي لست مبتدعاً بل متبعاً للشخصيات الإسلامية التي لم تأخذ بقتل المرتد.

إن كثيراً من المسلمين متمسكون بقتل المرتد تمسكاً شديداً، ليس هذا فقط بل يُقتل من لا يقول بقتل المرتد، وهذا دليل على أن أوضاع العالم الإسلامي في غاية المساوية، وقد حدث أن قتلوا من قال بعدم قتل المرتد، حدث هذا في أيامنا هذه...

ثم إنني لا أشك في أن المسلم قليل العلم كثير الإيمان هو الذي يقع في هذه المشاكل.

وإنني لأرجو من العلماء الذين يفهمون هذه الأمور ألا يتركوا الساحة لهؤلاء المتشددين في غير مكان التشدد حتى لا يطول هذا الوضع القائم، ولا حرج أن يعرف الناس أن المسلمين ليسوا على إجماع في قتل المرتد.

ثم إنني أرجو أن يفكر المفكرون من المسلمين بأنه ليس كثيراً بل نادراً أن يُغيّر المسلم دينه إلى دين آخر، وأن قتل المرتد يطبق على من يجتهد غير اجتهادهم فهذا الذي يعتبرونه مرتداً. وأرجو أن يتخصص متخصص في هذا الموضوع ويعرض هذه القضايا بدقة حتى تبين القضايا السياسية من القضايا الإيمانية، وإنني على يقين من أن مثل هذه الدراسات ستأتي بوضوح وتفصيل وعمق، وأن إحياء الإسلام وخدمته يكون من الشباب المؤمنين المتعمقين الذين يكشفون علل المسلمين بالدراسة والتحليل والتدبر لسنن الله في المجتمعات البشرية وقوانين الله في التاريخ، ونحن لا نشك أن وعد الله سيتحقق بإظهار هذا الدين، وإظهاره يكون من قبل عباده المؤمنين الربانيين الذين يعلمون الكتاب

ويدرسونه ويرون آيات الله في الآفاق والأنفس.

واني لأرجو من الشباب المتحمسين الذين يخدمون دينهم أن يجمعوا شمل المسلمين وأن يكفوا عن تكفير بعضهم بعضاً وأن يتعاونوا جميعاً مع اختلاف آرائهم ومذاهبهم أن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن لا يتعاونوا على الإثم والعدوان، وأن نسعى جميعاً لإصلاح ذات بين المسلمين وجمع كلمتهم وقلوبهم، وأن يتمسكوا بحبل الله جميعاً، وألا يرسلوا فتاوى الإعدام بعضهم لبعض، ألا يرسلوا المتفجرات بعضهم لبعض أيضاً.

هذا ما نأمله من طلاب العلم، والعلم هو الذي يجمع القلوب، والرحمة هي التي تؤلف القلوب التي لا يمكن تأليفها بأموال الدنيا، ورسولنا أرسل رحمة للعالمين وليس للمسلمين والمؤمنين فقط ربنا لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

الجهاد المشروط(*)

قال يوسف عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، [يوسف ١٢/١٠١]، وأنا أقول: يا رب قد علمتني من تأويل الأحداث في العالم، هكذا يقرأ الإنسان الأحداث في العالم، وهذه هي الحادثة في العصر الحاضر، وهي الحادثة الإسلامية كما أفهمها، فأقول مستعيناً بالله:

الاتجاهات العالمية نحو العنف:

تتقاسم الفكر الإنساني ثلاث نظريات، أو اتجاهات، أو مواقف للتعامل مع الآخرين:

النظرية الأولى: وهي تقول بنبذ العنف مطلقاً في الحياة، ومثالها الأم تريزيا وغاندي.

النظرية الثانية: وهي ترى أن استخدام العنف يجب أن يكون بشكل معين (مشروط)، وبالنسبة للإسلام هناك شرطان للجهاد: شرط في الجهاد، وشرط في الجهاد، وهذا ما سيأتي بشكل وافٍ بعد قليل، ولك الخيار بالأخذ بأحدهما.

النظرية الثالثة: وهي أن القوي يفعل ما يشاء بدون شروط: أنا القوي إذن أنا الحق، إنها شريعة الغاب؛ القوي يأكل الضعيف.

(*) - كتب هذا البحث في رمضان ١٤١٣ هـ، كانون الثاني ١٩٩٣ م.

إنني أجز محاربة إسرائيل بشكل يؤدي إسرائيل، ولا يؤذينا أكثر مما يؤذيها، ولكن بما أن الأمم المتحدة هي التي صنعت إسرائيل، فعلونا الحقيقي هو الأمم المتحدة التي صنعتها وتحميها، وهي جهاز أمريكي، وليست (أمماً متحدة) في حقيقتها.

دور الشعوب في مقاومة الاحتلال:

استطاع الشعب اللبناني أن يطرد فرنسا وأمريكا وإسرائيل من لبنان، ولم تستطع (الأمم المتحدة) أن تتدخل ولم يكن لها أي دور.

إذا كان لبنان البلد الصغير الفقير قد استطاع، وبدون أسلحة حديثة ومتطورة، وبدون حكومة، أن يطرد أمريكا وفرنسا وإسرائيل، فهل يمكن لبلد مثل العراق، البلد الضخم الكبير الغني القوي، أن تحتله الأمم المتحدة أو أمريكا؟ إن أسلوب الحرب الموجود لدينا، والذي نؤمن به هو أن نجهز قوات مسلحة وطائرات، لكنهم يعرفون كيف يقضون على كل تجهيزاتنا هذه خلال ساعتين. إنهم متمكنون من هذا جيداً ينتصرون على الجيش وبعد ذلك تستسلم الحكومة لأنها تعتمد على الجيش، ولكن ينبغي على الشعب أن يتعلم أن عليه ألا يستسلم بمجرد انهزام الجيش وسقوط الحكومة واستسلامها. هنا يبدأ دور الشعب وهذا ما حدث في لبنان، إذ لم يكن هناك جيش ولا حكومة ولا أسلحة حديثة.

نفهم مما سبق أن الذي يستعمرنا هو مفاهيمنا عن الجيش والحكومة والأسلحة الحديثة، لكننا نستطيع بغير هذه الأشياء أن نتصر على العالم، ولهذا أقول: كان على الشعب العراقي أن يفعل كالشعب الفرنسي الذي تمرد على الحكومة المستسلمة لألمانيا، وقد قاوم الشعب الفرنسي الاحتلال الألماني وحده دون حكومة، وصنع بعد ذلك حكومته.

والشعوب الأوربية تبارك مقاومة النازية والفاشية، وتعتبر أن هذا العمل شرعي، بل ومن أعظم الأمور شرعية، وبالنسبة لنا فإن الأمم المتحدة هي النازية والفاشية الجديدة الحديثة، إذ لو انتصرت ألمانيا على العالم لكانت مثل أمريكا الآن.

شرط الجهاد في الإسلام:

هذا وفق التفكير العالمي، ولكن وفق التفكير الإسلامي الذي يريد أن يحقق شرطي الجهاد لا يحتاج الأمر إلى هذا.

إنني أعني بالجهاد استخدام القوة المسلحة، ويبد نظام إسلامي وصل إلى الحكم برضى الناس، حيث إن هذه الوظيفة هي وظيفة الحكومة وليس الأفراد أو الجماعات. ألخص وجهة نظري في شرطي الجهاد بكلمتين، الأولى: شرط في المجاهد، والثانية: شرط في المجاهد، أما فيما يتعلق بالمجاهد فيشترط فيه أن يمثل حكماً شرعياً، من خلال الوصول إلى السلطة بالطريق الشرعي، إذ لابد من إثبات شرعية الحكم، والوصول إلى الحكم يجب أن يتم برضى الناس، فلا اغتصاب للسلطة في الإسلام، كما لا يوجد تغيير للأوضاع والحكم بالقوة، بما فيها الحكم الكافر، أي لا وصول إلى السلطة إلا برضى الناس، كما لا تغيير إلا برضى الناس، أي بإنشاء الأمة الراشدة، وبنائها بالممارسة اليومية، بعد ذلك يأتي الحكم كنمرة طبيعية لهذه العلاقة الزوجية الطبيعية، ولا يكون ثمرة لزواج الاغتصاب الذي يتم عن طريق السيف والبندقية والدبابة.

لا يوجد في الإسلام وصول إلى الحكم بالقوة، لا في البدء، ولا بعد النجاح، لا الآن، ولا في المستقبل، وعلى كل من يريد أن يصل إلى الحكم أن يجتهد في إقناع الناس وإنشاء الأمة الراشدة التي تفرز حكمها طبعياً.

وأما الشرط الثاني أي شرط المجاهد: وأعني به شرعية الحرب، فيبينه ما جاء

تكون قوياً وتشعر أنك على الحق.

وباختصار أقول: لا يوجد في الإسلام قتل للآخر من أجل الرأي (فكره - دينه - اعتقاده)، إنه شيء داخل الدماغ، ولذلك لا يقتل الإنسان من أجله إلا إذا خرج من الدماغ وصار في واقع الأرض وقتلَ الناس من أجل آرائهم أو أخرجهم من ديارهم، وبعبارة أخرى أقول: الإخراج من الأفكار والديار، بحسب فهمي أنا، هو مير القتال الوحيد والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

السننية واللاسنية

الواقع السيء في العالم الإسلامي:

للبدء في محاولة تغيير الواقع لابد من نقطة أساسية متفق عليها، وإذا أردنا أن نطبق هذا على مشكلة العالم الإسلامي فإننا ننظر: ما هو الجانب المتفق عليه من قبل الفرقاء المعنيين بالمشكلة؟

يمكننا أن نقول: إن الجانب المتفق عليه هو الواقع السيء. وقد أوضح الكتاب هذا الجانب حتى حظي بالاتفاق. ولعل مقدمة المقال الذي كتبه الراشد المبارك في العدد (٣٣٥) من مجلة العربي أبلغ تعبير عنه، حين قال: ((هذه الحالة من الوضوح والبروز بحيث يكون كل تدليل عليها أو تفصيل لها نوعاً من الجهد الذي يسقط من حسابه الحد الأدنى من المعرفة والإدراك لدى الفرد العادي...)).

وينبغي أن نقول هنا: إن الكراهية التي نبديها لهذا الواقع، إضافة إلى الرغبة الشديدة في التوجه للهدف المبتغى غير كافيين لإحداث التغيير المنشود، ولابد من معرفة طريق الانتقال بالدقة المكافئة للمشكلة المعقدة. ولكن من كثرة ما عرض علينا من طرق مختلفة، أو من كثرة ما أعيدت علينا الوصفات لبعضها، أصبح جذب انتباه القارئ إلى البدائل الأنفع أو الأصوب أمراً صعباً، حتى أن عدداً كبيراً من أصحاب المشكلة، وربما أخلصهم في النوايا صاروا ينظرون إلى المشكلة وكأنها فوق مستوى البشرية، وأنه لابد من تدخل قدرة إلهية أو قوة ما وراءية لحلها، حسب اللغة التي ينطلق منها الباحث.

ولأن المشكلة صارت مزمنة لم يعد يشعر بالخجل من يتقدم بحلول خاطئة،

اللاسنية، ولعل إيماننا بأن الله قادر على كل شيء، هو الذي يجعلنا ننظر إليه على أنه يمكن أن يتعامل مع البشر بطريقة لا تخضع للسنن، بهذا فتحنا باب التيه وفقدنا الاتجاه والتمييز. ولكي نتمكن من التمييز بوضوح بين السننية والالاسنية فإننا ننظر إلى موقف البشر من الأوبة قبل أن يكتشفوا الجرائم المسببة لها وموقفهم منها بعد أن كشفوا عن مسبباتها.

إن اختلاف الموقفين والسلوكين يبين لنا الاختلاف بين الفهم والسلوك السنني والفهم والسلوك الالاسني. إن ما بأنفسنا عن أسباب الأوبة يختلف كلياً عما كان بأنفس السابقين، وهذا التغيير لما بالأنفس أحدث واقعاً يختلف اختلافاً كبيراً عن الواقع السابق، ومن المفيد أن نتقل من هذا المثل إلى الأمراض الاجتماعية، الأمراض والأخطاء التي بالأنفس، والتي تنتج الواقع الذي لا يرضى عنه أحد، فهذا مثل ما بعث الله به رسوله من العلم والهدى ومثل من لم يرفع بذلك رأساً.

القرآن والخوارق:

بقراءة عابرة للإنجيل نستطيع أن نلاحظ أن آية عيسى عليه السلام على نبوته كانت خرق القوانين والسنن: من شفاء للأمراض وإكثار للطعام، في مجتمع تكثر فيه الأمراض وتشح فيه الأغذية، الإنجيل على صغر حجمه مليء بهذه الخوارق والعجائب، والقرآن نفسه يعترف لعيسى عليه السلام بأشياء من هذا القبيل، بينما لا تجد في القرآن أبداً هذا الأسلوب العجائبي الخارق للقوانين فيما يتعلق بمحمد ﷺ، بل نجد القرآن يواجه الموضوع ذاته وي طرحه عن قصد ووضوح، حينما ينقل عن المعاصرين لنزول القرآن أنهم طالبوا الرسول بأن يأتيهم بخوارق السنن بأسلوب لا سنني، ويذكر أن القرآن كان يجيبهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت ٥١/٢٩] فهذا الموقف القرآني

الصارم دليل على هجر عصر الخوارق والعجائب واللاسنن. موقف القرآن واضح، إنه يسجل أيضاً مطالبة الناس بهذا الأسلوب وميلهم إليه وافتتانهم به، ونحن لا نزال نَجِنُّ إليه ونغسي ونصبح عليه. ولكنني أستطيع أن أقول: هذا العصر العتيق عصر الخوارق والمدهشات واللاسنية إنما جاء القرآن ليلغيه وينشئ عصراً جديداً من السننية التي تخدم البشر، وإن كان يصعب عليهم التكيف معه في بادئ الأمر.

ومن المفارقات أيضاً التي يؤكدھا القرآن في تجاوز عصور الخوارق أنه يذكر كيف أن الله أهلك المعارضين للأنبياء السابقين بآفات سماوية، ثم يعرض الكفاح السنني للرسول ﷺ، الكفاح العلمي الواقعي، والتعامل مع الناس بالأساليب المعروفة، والمعاناة اليومية لتغيير الواقع بالسنن المعروفة للبشر، مع تذكيرهم بأن هذه السنن ستتكشف أكثر في المستقبل، وأن الأسلوب الذي جاء به محمد ﷺ نسخ الأساليب والفهم اللاسنني الخوارقي للعصور الماضية.

صحيح أن القرآن يقص أحوال العصور الماضية وأنهم كانوا يفسرون العالم وأحداثه تفسيراً لا سننياً، ولكنه يعطي تفسيرات جديدة، ويتحاكم إلى تاريخ المجتمعات الماضية، كما أنه يستند إلى معطيات آيات الآفاق والأنفس المقبلة فهذا ما عبر عنه إقبال من أن رسالة محمد ﷺ هي من العالم القديم من حيث مصدر رسالته ومن العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها.

المسلمون والتفسير اللاسنني لحياة الرسول ﷺ:

هذا الاتجاه الذي يحدده إقبال عن رسالة القرآن واضح وجلي، ولكن مراقبة صلة المجتمعات بمنزل هذه الاتجاهات تبين لنا الحنين الدائم للعصور الماضية، وكفاحها المرير لإبقاء العصور المنسوخة، والعالم الإسلامي - الذي كان المفروض فيه متابعة الاتجاه السنني الذي دأب القرآن على تأكيده - تنكب هذا الطريق

ورجع إلى العصور القديمة ونظر إلى حياة الرسول ﷺ نظرة حوارية وكتب السيرة النبوية ممزوجة بالطريقة القديمة يضاهي بها الذين من قبله.

إن تأمل هذه النقطة بوعي، وتأمل الأمور الواضحة في القرآن والتزامها، ثم إدراك واقع المسلمين، كل هذا يثبت لنا ضخامة المشكلة وعراقتها، وأنها ليست بنت اليوم والليلة، وأن هذا الرجوع الذي حدث للمسلمين، وهو ما يسمونه "الصحوة الإسلامية"، لا يزال محملاً بكل عوامل التخلف والأحلام اللاسنتية عن الماضي والمستقبل، وحتى الحياة السنتية للرسول ﷺ أشربت باللاسنتية، فالرسول هو الذي مارس السنتية وعانى مشقة التزامها وصعوبة التعامل مع الواقع والتعلم من الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلية، وهو الذي كان يرفض الخوارق حين تعرض عليه، ويتطلع إلى نتائج السعي السنتي، فيقول حين عُرض عليه أن يُطبَّق عليهم الأخشابان ((بل أرجو أن يُخرج الله من أصلاهم من يعبد الله وحده لا يشرك شيئاً به))^(١).

السنتية واللاسنتية اتجاهان كاملان ونظريتان في فهم الحياة تختلفان اختلافاً كلياً فيما يترتب عليهما معرفياً وسلوكياً.

صعوبة التخلص من اللاسنتية:

إن السنتية نضج ومسؤولية ومعاناة ويقظة دائمة شبيهة بالانتقال من الحالة الرحمية إلى الولادة الجديدة المستقلة عن تبعية الأمومة عضوياً ونفسياً، والانتقال من الأحلام اللاسنتية يجعلنا نتخلص من الحنين إلى العصور الخوارقية، وحنيننا إلى

(١) - أخرجه البخاري: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين... (٣٠٥٩)، ومسلم: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥)، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

عدم النضج يجعلنا نكافح في صف اللاسننية ضد طريق الحياة والنمو، وضد آيات الآفاق والأنفس، ومن ظن أنه يستطيع التخلص من هذه النكسة بسهولة أو أنه يستطيع التكيف من غير معاناة مع الحياة السننية التي لا تنفع فيها الأماني والرغبات فقد دلل على بساطة وسذاجة ما بنفسه عن المشكلة، وكل الذين يتابعون حل مشكلات العالم الإسلامي يصلون إلى السد والصور الذي يحمي الحياة المنسوخة والعصور العتيقة، وإن كنت في شك من هذا فانظر إلى صاحب الظلال كيف يعبر عن هذه المشكلة بأسلوبه الخاص كما عبر عن ذلك محمد إقبال بأسلوبه أيضاً. يقول صاحب الظلال في كتابه (هذا الدين):

((هناك حقيقة أولية بسيطة ولكنها مع بساطتها كثيراً ما تنسى أو لا تدرك ابتداءً، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين: حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي، حاضرة ومستقبله كذلك، إن البعض ينتظر من هذا الدين ما دام منزلاً من عند الله أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية غامضة خارقة ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ولطاقاتهم الفطرية ولواقعهم المادي في أي مرحلة من مراحل نموهم وفي أي بيئة من بيئاتهم، وحين يرون أنه يعمل بهذه الطريقة، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة والواقع المادي للحياة الإنسانية يتفاعلان معه، فيتأثران به في فترات تأثراً واضحاً، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه، فتقع بالناس شهواتهم وأطماعهم وضعفهم ونقصهم، دون تلبية هتاف هذا الدين، أو الاتجاه معه في طريقه.. حين يرون هذا فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها - ما دام هذا الدين من عند الله - أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعته، أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً، هذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية

البيسطة...^(١).

وهذا ما يلح عليه الدكتور الريمحي في مقالاته (حديث الشهر)، حين يقول متحدثاً عن: ((الأوضاع الشاذة لتدريس العلوم في أنظمتنا التعليمية، وأذكر - ولعل غيري يذكر معي - كيف كان مدرس الطبيعة في المدرسة الثانوية التي تعلمنا فيها يقدم لنا التجارب العلمية على أنها نوع من السحر أكثر منها قوانين طبيعية))^(٢).

هذا الموضوع نفسه - مهما اختلفت الأساليب التي تعرضه - هو محتوى ما جاء في الحديث عن زياد بن ليبيد أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: ((وذاك عند ذهاب العلم)) قال: قلنا يا رسول الله! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبنائنا يقرئون أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: ((نكلك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم))^(٣). وعند ابن أبي حاتم: ((يوشك أن يرفع العلم))، وهذا مثل قوله ﷺ: ((يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها...))^(٤). هذا حديث عن الأحوال الاجتماعية الإنسانية وما يطرأ عليها من سيطرة الأوهام. والدراسات الحديثة تبرز باهتمام بالغ أمر الأوهام الاجتماعية في التاريخ التي يعبر عنها القرآن بقوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ

(١) - هذا الدين ٣/ ٤.

(٢) - العدد ٣٣٠ من مجلة العربي.

(٣) - أخرجه الترمذي في العلم، باب: ما جاء في ذهاب العلم، رقم (٢٦٥٥) ولفظه نحوه.

(٤) - أخرجه أبو داود في الملاحم، باب: ي تداعى الأمم على الإسلام، وأبو نعيم في الحلي (١٨٢/١) وأحمد (٢٢٢٩٦) كلهم عن ثوبان.

الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف ١٨/١٠٤]. فالرسول ﷺ كان يتحدث عن ذهاب العلم وعدم الأخذ بالسنن والاستفادة منها، والشاهد في الحوار أن رسول الله ﷺ لم يقل لزياد بن ليبيد حين اعترض على حكم رسول الله: أنا رسول الله ولا أنطق عن الهوى.. بل ترك الاحتجاج بسلطان النبوة وسلطان الله، ولجأ إلى السننية، إلى سنن الله في التاريخ والوقائع الاجتماعية المعاشة المعاصرة لهم، والواقعة تحت أسماعهم وأبصارهم. هذا الأسلوب النبوي منبثق من إلحاح القرآن على السير في الأرض والنظر إلى أحداث التاريخ والوقائع الاجتماعية، لأن المتأمل فيها يمكن أن يخرج منها بالحق الذي لا يمكن أن يدفعه أحد. ونحن الآن بحاجة إلى إعادة الحياة إلى مثل هذه البذور، لتبعث الانتعاش فينا، وتفتح أبصارنا على منهج جديد في الحياة.

نماذج من التفكير اللاسني في واقع حياتنا:

وإذا كنت أيها القارئ الكريم متفائلاً من أحوال العالم الإسلامي الذي نصبح كل يوم على مأساة جديدة من مآسيه، فإني لا أشاركك هذا التفاؤل، لا لأنني يائس ولكن لأنني لا أرى توجهاً واعياً في العالم الإسلامي، ولأنني أكتشف من نفسي، وأنا الذي أتحدث بهذا الحديث، أنني أدخل إلى هذا البحث بقرون استشعار، لا بعيون مفتوحة تبصر الواقع جيداً، وإليك بعض الأمثلة التي نلتمسها بقرون الاستشعار في مجتمعاتنا الإسلامي من الأحداث التي ذهب عنها ضوء العلم وغشاها الأسلوب السحري: يأتيني رجل لا يكاد يتخلف عن صلاة الجماعة، ويحدثني بأنه سمع خطيب المسجد في يوم الجمعة يتحدث بأن رائد الفضاء الأمريكي أرمسترونغ سمع الأذان وهو في القمر، ثم يقدم إلي قصاصة قدصور فيها الخير كما ورد في صحيفة ما مع صورة رائد الفضاء، وأشكره على هذا الاهتمام وأعيد إليه قصاصة الورق، فيقول لي: لتبقى عندك، فأنت أقدر مني على

الاستفادة منها، وينطلق.. على أي شيء تدل هذه الأسطورة؟ إنها عند التحليل تعبر عن مأساة العالم الإسلامي وأحلامه، الأسطورة لا تولد في فراغ، بل تولدها الرغبات غير المتحققة، والأحلام الضائعة، والشعور الحاد بالعجز، والفشل والشماتة بالنفس وبالأخرين... ووظيفة الأسطورة دمج هذا كله واحتزاله بشكل معبر.. ولو بحثنا عن رواة ومبدعي هذه الأسطورة فإننا لن ننتهي إلا إلى فراغ، ولكن عند التحليل نجد أن الواقع الحي ينطق بمعنى هذه الأسطورة ودلالاتها، فهي تدل بوضوح على الشعور بالنقص والحسد والعجز، أمام الذين وصلوا إلى القمر من الخصوم التقليديين والمنافسين للعالم الإسلامي على مر تاريخه، فهذا الوصول إلى القمر كان تنويجاً لتفوقهم الفاعق، وبلغزة الرمز والتعويض تريد الأسطورة أن تقول: صحيح أنكم تفوقتم علينا في هذا، ولكن لا تنسوا أننا لا نزال فوقكم ونحن خير منكم، لأن أذاننا هو الذي يسمع في القمر...

كم يكون مفيداً أن نتمكن من تحليل هذا الواقع بلغة الوعي والوضوح والعلم والسنة، بحيث يكون شفاء لنا، بدل أن نعب عنه بلغة الأسطورة واللاسنية التي تجلب السخرية لنا من الشامت، والحسرة والأسف من المحب؟ وهكذا بقية الأساطير والأحلام الرمزية التي تتصل بالآليات العميقة في حياة المجتمعات.

يتداول طائفة من خريجي الجامعات نشرة تستنبط من القرآن، بواسطة الكمبيوتر، أن الساعة ستقوم بعد ثلاثمائة عام^{١١}. تتحدث صحف عن التيس الحلوب والمعجزات والعجائب التي يعتقدونها بعض الناس في حليبه^{١٢} تعلن إذاعات ومحطات تلفزيونية عن رؤية هلال شوال ١٤٠٦ هـ وذلك قبل أن يحاذي القمر الشمس بما لا يقل عن ٢٤ ساعة بالنظر المجرد. كأنه لا يوجد عندنا عيون تبصر السماء، ولا جامعات ولا كليات جغرافيا ولا دكاترة لهم صلة بالموضوع،

وعندهم شعور وحس يدفعهم إلى تصحيح الخطأ والتنبيه إليه. وترسل رسائل إلى تربة الإمام الشافعي لحل أزمة اجتماعية^{١١} وكذلك ترسل رسائل شكوى بكل جدية، يصوغها على القوم، إلى مجلس الأمن، وهي لا تقلّ لا سننية عن الرسائل التي ترسل إلى تربة الشافعي في القاهرة^{١٢} وهنا يظهر لنا كم هي وثيقة تلك الصلة بين القمة والقاعدة، وكم هي المشكلات موحدة وواحدة على مختلف المستويات، وكم كانت معبرة تلك الإدانة لمؤسسات التعليم والمشرفين عليها، حين تحدث الدكتور الريمحي عن ((تحصيل الطلاب في المستويات التعليمية المختلفة، وها هو الخريج الجامعي الذي - في أي تخصص كان - يجد صعوبة في الإلمام بالقضايا العامة ويسهل كثيراً إقناعه دون نقاش طويل بأن هذا المنطلق أو ذاك هو الصحيح في الحياة، فيتعصب له دون نقاش، ويتبعه دون تساؤل. ضيق الأفق في الشؤون العامة يرى الأمور سوداء أو بيضاء قبلياً أو طائفيّاً أو قطريّاً في أحسن الأحوال))^(١).

أين موطن الداء؟

أظن أو يُخيل إلي أنه عند هذه النقطة يبدأ تحويل الأضواء والكاميرات من رجال السياسة، في أنهم هم المسؤولون عن تخلف العالم الإسلامي، إلى رجال الفكر فيوضعون في رأس القائمة. هذا ما يمكن أن أُلح به - ولا أريد التحني على كاتب حديث الشهر في العدد (٣٣٠) من مجلة العربي حين يقول: ((وما أريد أن أقوله: إن تنشيط الطلب الاجتماعي على العلم والتقنية لابد أن يسبقهما خلق وعي عام بأهميتهما.. وفي تقديري المبدئي أن خلق هذا الوعي يجب أن يتكسر لدى القيادات الفكرية والسياسية.. هناك عزلة حقيقية بين القيادات الفكرية من مثقفين - من غير رجال العلم - وبين ما يجري في دنيا العلم على أيدي المقتصرين

(١) - العربي العدد ٣٣٤.

عليه)). ولقد صرح من قبل أيضاً الدكتور محمد الطالبي بهذه النقلة لتحويل
بمجرى البحث حيث قال: ((إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم إنما هو إلى
حد بعيد إخفاق الجامعة قبل كل شيء؟))^(١).

وفي نهاية المطاف، بعد الدوران والتذبذب، يعود المؤشر الباحث عن
المشكلة، مشكلة العالم الإسلامي، ليشير إلى مفكره، ليشير جهاز الكشف إلى
ذاته فالخلل فيه، وبهذا الكشف المبين أثبت آدم كفاءته حين قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا
أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف ٢٣/٧].

والحمد لله رب العالمين.

(١) - مجلة عالم الفكر المجلد الخامس العدد الأول ١٩٧٤ مقال بعنوان: التاريخ
ومشكلات اليوم والغد.

ضاع وهلك، وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه، وأما من حرر المعاني أولاً،
تم أتبع الألفاظ المعاني فقد اهتدى)).

ومالك بن نبي يريد أن يحرر المعاني في مشكلة ميلاد المجتمع ودورته، وفي ظني
أنه أجرى أدق مقارنة حين قال: ((إن هناك أنواعاً من الجهل لا يمكن الإغضاء
عنها، وهناك إضافات لهذا القرن وقيم خاصة به لا تستطيع طبقة منقفة أن
تجهلها دون أن تشنع بنفسها)).

إن هذا القول هو ما يفسر شرارة الوحي التي ذكرها كمركب في معادلته:

الإنسان + تراب + وقت = حضارة

إن الغائب عما يحدث في العالم لا يمكن أن يصنع حضارة، وما جعل مالك
بن نبي يكرس نفسه لتحضير المسلمين هو حضوره المتميز في هذا العالم الذي
نعيش فيه، فهو بهذا الحضور كان شاهد القرن وحامل رسالته..

عليه رحمة الله في الخالدين، والحمد لله رب العالمين.

النفس والروح وينقل عن الله عز وجل وعن الرسول ﷺ.. فيقول: قال الله وقال رسوله، حتى قلت له: دعنا من قعقة الكلمات التي لم تعد ترهيني، دعنا من الأقوال عن النفس والروح وعن.. وعن..

نريد أن نعرف كيف نفهم؟. كيف يحصل الفهم؟.. كيف نتأكد أن ما فهمناه قد فهمناه؟. كيف تنتقل إلينا الأفكار؟.

لندع الحديث عن السماء.. ولنتحدث عن الأرض.. لنبحث عن الإنسان والقطرة والبيئة. كيف تصوغ البيئة هذا المولود؟.

إن الذي يحدث، يحدث أماناً، وتأثير قوى تحيط بنا، بل تصدر عنا، بشكل ليس غيبياً، ولا خارقاً، بل بشكل يخضع للفهم، والسيطرة عليه.

حين نقول: قال الله وقال رسوله نعرف أن هذا القول من الله عز وجل ومن رسوله ﷺ لا يصلنا إلا إذا مرَّ بقنوات وأجهزة من صنع البشر، وعبر المراحل الثلاث التي ذكرتها في البداية..

لقد (استخدم) الله سبحانه للتكلم إلينا اللغة التي صنعها الناس، الناس العاديون ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم ١٤/٤] لهذا ترانا نتلقى ذلك وتداوله بواسطة الأساليب الثلاثة التي يمر بها كل الناس..

فمفاهيم الكلام، كلام الناس، أو كلام الله سبحانه أو كلام الرسول عليه الصلاة والسلام لا تصل إلى فكرنا إلا بواسطة هذه المراحل الثلاث، إذ لا يمكن لنا أن نتصل مباشرة (بأفكار) الله عز وجل أو بكلامه أو بكتابه وكذلك بالنسبة لرسوله الكريم.. ولكننا نتلقى عنهم بواسطة هذه المراحل..

نحن الآن ليس أماناً إلا كتاب بين دفتين، لا يمكن لنا أن نفهمه إلا بواسطة اللغة، بواسطة الكلام المحكي، والمكتوب... والمسلمون عموماً يظنون وبكل

سداجة أنهم يدركون المعاني، أو يقدرّون على الاتصال بهذه المعاني التي أرادها الله بواسطة اللغة ودون الرجوع إلى الواقع الذي تتحدث عنه.

فهناك مشكلة اللغة، ومشكلة الدلالة، والرمز، هذه القضية يجب بحثها لا كشيء سحري خارق، أو كموضوع غيبي، وإنما كشيء تقع جزئياته كلها تحت سمعنا، وبصرنا، وملاحظاتنا، فلا شيء منها يخفى على أي من الناس إذا أراد أن يتأمل الواقع الذي يحدث أمامه...

دلالة الكلمة ودلالة الواقع:

من هنا كان إلحاح القرآن الكريم على الرجوع إلى الواقع، وتلمس الفهم من خلاله، وهذا الأمر الذي ألح عليه.. لقد ركز عليه القرآن الكريم، وكرر الطلب والتأكيد على مدّ أشعة السمع والبصر، كما أكد على تكرار النظر في آيات الواقع.

ويبدو أن ما ألح عليه القرآن الكريم قد فرّغه المسلمون من معناه، بل لقد صاروا ينظرون إلى الواقع بالريبة والتردد، ولا يثقون به، في حين أن الواقع هو رصيد الكتاب وهو الذي جعل الكتاب مبيّناً، كريماً وعظيماً، ذلك أنه أيد الواقع ودعا لإعادة النظر إليه، وقال إن اليوم الآخر، والمعاد، والحق... كل ذلك حقّ مثل ما أنكم تنطقون: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَمَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات ٥١/٢٣].

نحن الذين ننطق... نحن من يملك الحنجرة واللسان والشفيتين، نُخرج منها الهواء برنين معين، وطريقة معينة ثم نربط هذا الرنين عبر الذبذبات والموجات الصوتية، بمعنى نعطيه للصوت، فالنطق قابل للارتباط بهذا المعنى أو بذاك..

لذلك وجدت لغات لا حصر لها ﴿وَإِخْتِلَافٌ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ [الروم - ٢٢/٣٠]، ولو كان بين الكلمة والمعنى ارتباط غير ربطنا نحن - الربط الاعباطي - لو كان هناك ربط وجودي لما كان في العالم إلا لغة واحدة بدلالات واحدة.. ولو كان ذلك لما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾.. هذه الموضوعات لم تلق البحث الكافي بعد..

إن الإنسان هو الذي يكتشف المعاني.. وكما ذكرت سابقاً إن اللغة الفكرية تختلف عن اللغة اللسانية، وأقصد تلك اللغة التي توصل المفاهيم دون كلام والتي لم نجد لها اسماً بعد، ولو أننا تداولنا هذا الموضوع باستمرار لتولد الاسم بالضرورة، دون أن نشعر.

عندما يغدو الموضوع واضحاً يتولد الاسم الذي نراه نحن، لا الله سبحانه، إنه جل جلاله لا يسميه، والله عز وجل استخدم هذه المصطلحات التي وضعها الناس حينما أرسل الرسل.. بالسنه أقوامهم.

والظاهرة التي لا نقدر على تحليلها هي ظاهرة دلالة الكلمة، ودلالة الواقع، إننا نظن أن الكلمة أدل على الواقع من نفسه!! هذه بديهية، ولكن الوهم الذي نقع فيه يشبه الوهم الذي وقعنا به حين ظننا أن الشمس تدور حول الأرض، وأصبحنا جميعاً نقرّ بأن الناس جميعاً كانوا يقعون في وهمٍ جلّيٍّ، وكما كان من الصعب كشف الحقيقة، حقيقة هذا الواقع..

ينبغي أن نتمق في فهم هذه الظاهرة.. إذ لم تكن العودة إلى النصوص لتحل المشكلة لو اكتفى الناس بالكلام أو اللغة، ولو اقتصروا على فهم هذه الحقيقة من النص أو من اللغة، لر حصل ذلك لاستمر القتال، ولوجد من يؤول النصوص، فالنصوص قابلة للتأويل، والبشر بإمكانهم أن يقوموا بذلك، لأننا نحن الذين نصنع المعنى ونحن الذين نصنع العلاقة بين الكلمة ومدلولها، بين اللفظة ومعناها،

وما نصنعه نحن نستمر بصنعه وأحياناً على أساس الوهم والخيال، وعلى أساس التصور المنفصل عن الواقع، الذي يمكن أن يغوص أو يطير ويخلق!! في حين أن الواقع لا قدرة له على الطيران، إنه يلتزم بحدوده، فهو مقيد يتحرك ببطء.. ومع ببطئه يحقق قطع مسافة ما، لكن الخيال مع تخليقه وطيرانه لا يقطع أي مسافة، ولا ييارح مكانه!!.. فكرة أيضاً يجب الإكثار من تأملها..

كم من الأرواح نحملها مع استعدادنا للموت من أجلها ودفاعاً عنها، أو مع استعدادنا لأن نميت الآخرين من أجلها..

الوهم الصادق والصدق الواهم:

إن في حياتنا أوهاماً صادقة مثل ظاهرة الشمس ودورانها، وصدقاً متوهماً، وبعبارة أخرى ينبغي أن تكون لنا القدرة على رؤية جانبيين للأمر لا جانب واحد كالوهم الصادق.. والصدق الواهم.. ولكن مجرد إيجاد مثل للظاهرة الثانية يحمل صعوبة أيضاً.. ولربما يوضح هذا المثال بعض الأمور.

الناس يعتقدون أنهم مجبورون على طاعة الدكتاتوريين، وعلى عدم قول الحق أمامهم ظناً منهم أن قول الحق يحمل لهم الهلاك الحق.. هذا وهم صادق، بينما هنالك أمر حقيقي وهو: القضاء بقول الحق على ما يعتقدون أنه مشكلة.. هذا صدق ينظرون إليه بوهم.. والاعتقاد الأول وهم ينظرون إليه بصدق...

كم من أشياء حقيقية نفهمها فهماً خاطئاً، وكم من أشياء خاطئة نفهمها فهماً راسخاً!!

وبين أن نظن الكذب حقيقة، والحقيقة كذباً، تكمن حالة أخرى هي: أن نظن الصحيح صحيحاً، وأن نرى الخطأ خطأ.. أرنا الحق حقاً... والباطل باطلاً. أما سبيل التخلص من الفهم الخاطئ والعودة إلى الصواب فهو الرجوع إلى

الظاهرة وتأملها والنظر إليها وإلى عواقبها.. وحين نقصي ونستبعد النظر إلى الظاهرة نفسها وإلى عواقبها، فإنه لا يمكن أن نجد الحلول بواسطة الصور الذهنية، لأن هذه الصور منفصلة عن الواقع، ويمكن أن تكون أوهاماً لا أكثر..

لابد إذن من العودة إلى الواقع لأنه أدلّ على نفسه من الصورة التي نتخيلها عنه، كما أنه أدلّ على نفسه من الكلمة التي نطلقها على تصورنا الذهني له، هذه الحقيقة المستبعدة هي أم المشكلات الإنسانية..

وزيادة في إيضاح ما سبق سأورد مثلاً عملياً يجري معنا في حياتنا اليومية أو الفصلية... من خلال تربية النحل.

حين نكشف عن الخلايا (نتفحصها) قد نجد ملاحظات معينة تتعلق ببعضها، فنضع حجراً على الخلية الضعيفة، وبعد حين يصبح الحجر رمزاً يدل على معنى ما، فإذا رأينا حجراً على خلية ندرك حسب مصطلحنا الذي كان في تصورنا أثناء وضع ذلك الحجر أن الخلية ضعيفة، ولكن يحدث في مرحلة أخرى عند الكشف عن تلك الخلايا أن نضع حجراً لنشير إلى الخلية القوية، لا الضعيفة وذلك بغية إضافة إطارات جديدة للشغل، فنعرف أن الحجر يعني ضرورة إضافة إطارات جديدة، وقد يحدث أنه نضع حجراً على الخلية المريضة بغية معالجتها، فقد نضع الحجر في الوسط ليدل على المرض أو في الأمام ليدل على الضعف أو في المؤخرة ليدل على القوة.

وأحياناً نرى الحجر فلا نعرف على أي أمر يدل.. هل يدل على ضعف أو مرض أو قوة؟ وحينما نقع في الحيرة من دلالة هذا الحجر نلغي دلالاته ونعود إلى التعامل مع الخلية من جديد (يكشف مباشر).

هذه الظاهرة الطبيعية تساعدنا على فهم المشكلة العويصة، فالحجر نفسه لم يعد مصدر المعرفة، ومصدر العلم بالشيء، وإنما هو رمز عارض قابل لأن يعطي

معاني كثيرة، وللخروج من الحيرة نعود إلى الواقع للتعامل معه برموز جديدة.

فالرموز إذن ليست هي المرجع الحقيقي، إنها مرجع ثانوي عارض لفهم الحقيقة والتعامل معها، هذه النقطة التي تثير المشكلات والأزمات في العالم الإسلامي، وفي العالم الإنساني عموماً تبدو نقطة بحفية، وجليّة بأن واحد.

لكنّ الله عز وجل تعامل معنا بالرموز، وبحقائق الواقع، وأمرنا بأن نرجع دائماً إلى الواقع، فننظر فيه، ونتأمله، وما الرموز إلا أشكال مساعدة مرحلية، ومؤقتة يمكن أن تختلف بحسب الزمان، والمكان، أما السنن الواقعية فلا تتغير، ومهما رجعنا إليها نجدّها ثابتة: ﴿قُلْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا، وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر ٤٣/٣٥].

ما الرموز إلا أسماء سميها ما أنزل الله بها من سلطان، السلطان في القانون الثابت والسنة الثابتة فحسب. فالرمز إذن أداة تساعد على الفهم الموقت، أما الواقع فهو أبدي وذلك من سنة الدرة.. إلى سنة الهجرة.

مرجعية الواقع وختم النبوة:

من هنا لما جاء الإسلام بمبدأ الاهتمام بالوقائع، والتفاهم مع الله سبحانه بواسطة سننه، توقفت النبوة التي كانت مرحلة ثم انتهت، وصار خاتم النبيين، يصرّ - بواسطة آيات القرآن الموحدة إليه - على النظر في الكون، وتأمل الخلق، والاعتبار بسنن الماضين، كل ذلك يشكل أدلة واضحة على أن التعامل مع الله سبحانه يكون وفق سننه التي لا يمكن أن تتغير مع أهوائنا: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون ٧١/٢٣].

لقد انتبه محمد إقبال إلى ذلك، خاصة في بحث ختم النبوة، وتساءل: لماذا ختمت النبوة، ولم يعد يأتي نبي، ولا كتاب؟ لأن آخر الرسالات والكتاب

والنبي دلّنا على الكلام الذي ليس كلام حروف، وإنما حقائق ملموسة،
أصبح الواقع مصدر الفهم.

كنت أقرأ مقالاً في مجلة الثقافة الإسلامية التي تصدرها المستشارية
الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية كتبه: آية الله عبد الله جواد
الآملي، وقد وضع في أوله عنواناً جانبياً يقول: ما المقصود بالكتاب؟ وكان
الكتاب يبحث في تفسير سورة الرعد: ﴿الْمُرْتَلِكُ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَالَّذِي
أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ...﴾ [الرعد ١٣/١].

قال الكاتب: في الآية الأولى ذكر الله تعالى أن الكتاب (التكويني) وهو
الكون والكتاب (التدويني) وهو القرآن الكريم كليهما حق... ثم وضع
عنواناً آخر: الكون علم متجسد... وقال تحته: إن هذا النظام الكوني
مهيمن على كل البشر، والعلم يدرسه.. ذلك أن الكون علم متجسد..

حين نرى مكتبة تحوي عدة آلاف من الكتب.. نقول: إنها علوم، لأن
ما كتب فيها هو من العلم، والذين قاموا بتأليفها هم من العلماء، كل
أولئك تلامذة هذا النظام، وما دونوه هو جزء يسير مما عرفوه من هذا
الوجود.

فكيف يكون المدوّنون علماء، وتدوينهم علماء، ولا يكون متن هذا
النظام علماء؟ أو لا يكون نظاماً قائماً على العلم وقد أخذت منه معارف
العلماء ومضامين الكتب العلمية؟.. إن الكون علم متجسد.

معرفة التاريخ وفهم الكتاب:

وما أود قوله هو: أنه لا يمكننا أن نفهم القرآن الكريم ونحن نتجاهل ما ألح عليه من معرفة بالتاريخ البشري، وأخبار الأمم، ومن غير أن نكون شهداء على الناس في هذا القسم الضخم الذي أهمله المسلمون، وكأنه لا قيمة له على الإطلاق، بل إن أحداً لا يحاول أن يتخصص في ذلك!!

إننا بهذا نلغي دلالة الكتاب إلغاء تاماً فيصبح وكأنه غير موجود، لأن الذي ينبه المسلمين إلى ما يضمه الكتاب من اهتمام بالتاريخ وحوادثه وبأحوال البشر ليس الكتاب ذاته، ليس القرآن الكريم، بل حوادث الكون والتاريخ نفسه، حوادث الكون هي التي ستعلمنا ذلك، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠]، هذه الآية رغم أنها أمام المسلمين منذ نزولها فإنهم لم يستفيدوا منها، بل حتى الذين عرفوا كيف بدأ الخلق لم ينطلقوا في بحثهم من الآية، وإنما انطلقوا في بحثهم من ملاحظة الكون فحسب.

فما دل على نفسه وعلى ما فيه هو الكون ذاته وليس الكتاب، والأعمق في الدلالة أن المسلمين يرفضون معنى هذه الآية، في حين صار محتواها هو المرجع الأساسي لفهم الأمور.

مرة أخرى أقول إن الحدث أو الشيء أدل على ذاته من كل وصف، فعند الاختلاف يكون المرجع ليس الكتب وإنما العودة إلى الحدث أو إلى الشيء ذاته.

مثلاً إن الصخرة أدل على نفسها من كل كلام يقال عنها، حتى ولو كان هذا الكلام كلام الله عز وجل، لأنه سبحانه استخدم كلام البشر في الحديث عنها، لكنه حين خلق هذه الصخرة لم يحتاج إلى البشر، فالصخرة أدل على صنع الله من كل كلام يقال عنها، وعند الاختلاف بشأنها يصبح المرجع الأصديق

هو البحث عن الصخرة ذاتها، وعندما يأتي علم جديد عن هذه الصخرة، علم أعمق، فسيأتي من خلال التعامل مع هذه الصخرة ذاتها.

هذه بدهية لكنها غائبة عن أذهان المسلمين خاصة والبشر عامة، لهذا نجد القرآن الكريم يلح غلى الرجوع إلى الكون المادي، والعودة إلى الواقع الاجتماعي لفهم النظام والسنن.. ليقول لنا القرآن الكريم: إن الواقع أدل على ذاته من (كلامي - كلام القرآن)، ويقول لنا كذلك: ستفهمون في المستقبل معنى هذا الكلام لأن الواقع هو الذي سيكشف معناه.

صنع السلام بمبادئ الكتاب أم بحقائق الواقع؟

حين يسأل الأخ الكريم: ((هل رادع الخوف من الدمار وحده كافٍ لإنهاء الحروب، وإحلال السلام في العالم، أم السلام بالإسلام (السلام الحقيقي)؟)). رادع الخوف من الله لم يصنع السلام بين المسيحيين خلال ألفي عام. ورادع الخوف من الله لم يصنع السلام بين المسلمين خلال ألف وأربعمئة عام بدءاً من معركة صفين، وانتهاء بحرب الخليج.. وحروب الخليج الأخرى كذلك.

لكن الرادع النووي صنع السلام بين الذين دخلوا هذا العالم.. هذا ليس عيباً على الإسلام. ولا هو نقص فيه، إذ لا بد من إقامة الدليل، والدليل من واقع الأرض، الرادع النووي صنع السلام والرادع الإلهي والديني - الأخرى لم يصنع السلام عفوياً.

لماذا لا نقول: إن الرادع النووي هو رادع إلهي أيضاً، لأنه بسننه تعالى؟ هذا ما يقول الله تعالى عنه للبشر: إذا كنتم لا تريدون أن تصنعوا السلام بقولي لكم ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة ٢/٢٠٨]، فسأرغمكم على السلام بآيات الآفاق. هذا ما تعنيه: ﴿انظروا﴾، ﴿وانظروا﴾.

إن لم تؤمنوا بواسطة الموعظة، فستؤمنون بواسطة عواقب الأمور رغماً عنكم: ﴿قَتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس ١٧/٨٠]، إنه اقتصادي وطماع، إن ظن أنه سينجو من العقوبة، فسيغامر، ويدخل المخاطر، وإن تأكد من عدم نجاته فسيعدّ قبل إقدامه إلى العشرة بل المائة أو الألف.

يدخل الإنسان الحرب طمعاً في النصر، ولكن حين يتأكد من الهزيمة، أو من الموت، يتردد في الإقدام عليها ويصبح كمن يقوم على الانتحار، ولا شك أن عدد المنتحرين أقل بكثير من عدد الذين يموتون موتاً طبيعياً.

هذه الأمور يمكن دراستها من خلال الواقع الإنساني وطبيعته وتكوينه، ودراسة خلق الله، لا تناقض دراسة الكتاب، لكن البدء في الدراسة من كتاب الله دون الاعتراف بالواقع الذي سيشهد في النهاية على الكتاب وصدقه لا يحل المشكلة بل يضاعفها.

إنه أسلوب غير واقعي، في حين أن الواقع الذي يرغم الجميع هو الذي يضغط في النهاية لأن نغير فهمنا عن القرآن.

فمثلاً القرآن الكريم يقول عن القلوب إنها هي التي تفقه (تعني وتفهم) أي أن القلب هو عضو الفهم، إلا أن الواقع والتعامل معه كشف أن القلب البشري ما هو إلا مضخة للدم، ولا علاقة له بالفهم، إنه مضخة تعمل ببطء أو بسرعة وفق الأوامر الصادرة إليها، وليس القلب هو الذي يصدر الأوامر.

إذن الواقع كشف فيما إذا كان هذا القول حقيقة أم مجازاً.. أو خيالاً. لأن الإنسان بإحساسه يشعر أن قلبه هو الذي يخاف ويطمئن، استناداً إلى شعور عام سطحي، وليس على أساس البحث العلمي الدقيق (البحث حسب الواقع)، ومع ذلك فإن الإنسان سيرجع إلى القلب وأنه هو الذي يفهم إذا ما ثبت هذا الأمر بالدليل الخارجي لا بمجرد القول.

الواقع يغير فهمنا للكتاب:

حدثني أحد الأصدقاء أن بعض الذين تشككوا في وصول الإنسان إلى القمر اجتمعوا ليتخذوا قراراً حول ذلك، فقال أحدهم: إذا ثبت أنه وصل إلى القمر فماذا سنقول؟.. سنقول إن فهمنا للقرآن الكريم كان خاطئاً. هذه الحادثة تدل على أن هذا التسلسل يحدث دائماً على مر التاريخ، ونحن الآن كثيراً ما نصاب بصدمة تجاه موضوع جديد، وسبب الصدمة صدق هذا الموضوع الجديد وواقعيته، إذ الناس ينكرونه في البداية، وبعد أن يشهد الواقع يضطرون إلى التكيف معه.

كم تحدثت مراراً حول هذا الموضوع دون جدوى، كمن يخض الماء، وتبقى جدواه قليلة في المستقبل المنظور. الغريب أن هناك مشكلة إنسانية هي أن الأمر الذي يسلم به الأكثرية يسهل قبوله، لا لأنه هو الصواب بل لأن قبوله لا يحدث معارضة ولا حرجاً، وما يُجمع الناس على إنكاره يكاد الإنسان يفقد القدرة على إدراكه.

لكن معرفة التاريخ، ودراسة هذه المنعطقات التي مرّ بها الناس في تاريخهم، وكيف كانوا يرفضون أموراً ثم يقرون بها، وكذلك كيف كانوا يقرّون بأمر ثم صاروا يرفضونها، إن هذه المعرفة التاريخية الإنسانية تجعل الإنسان يتشكك ويسأل: هل ما نسلم به الآن سيتغير؟ هل هذه الأشياء ليست خالدة ولا أبدية؟

اللّه وحده هو الأبدي الذي ليس كمثله شيء، ولكن المخلوقات كلها متغيرة ولو تيسّر لإنسان أن يقوم بمراقبة فكرية لوضع الكرة الأرضية ونشوء الحياة فيها، وأنواع الحيوانات التي عاشت عليها، وكيف كانت الحياة كلها في الماضي ثم صارت على اليابسة، ثم وجد الإنسان، لتساءل: لماذا لا يخطر في بالنا أن

هذا الخلق ما يزال مستمراً، وأنه لم يتوقف، وأن الله تعالى لا يزال يخلق، ويزيد في الخلق ما يشاء.. وأن هناك نشأة أخرى؟

ميزة الإنسان أنه يستفيد من التاريخ، فمعرفة كيف بدأ الخلق هي التي تدل على استمرار الخلق، والزيادة فيه.

ونحن البشر لم يمر على إدراكنا لتاريخ الأرض أكثر من مائتي عام. وإن المائتي عام بالنسبة لملايين السنوات التي عاشتها الأرض دون كائنات عاقلة ليست إلا فترة قصيرة جداً.

إن التاريخ سيضطر المسلمين إلى تغيير فهمهم للقرآن، وها هم اليوم يقفون موقفاً سلبياً من التاريخ العام، ولا يعترفون به، بل يعترفون بتاريخهم الخاص فقط، وحتى هذا التاريخ الإسلامي لا يأخذ حجمه الحقيقي، لا سلباً ولا إيجاباً، إلا إذا نظر إليه في سياق التاريخ العام للبشرية.

ببطء شديد نتعلم، وبمعاونة أشد يتعلم بعضنا من بعض، وبالمعاونة نتمكن من إبصار بصيص من النور الخافت.

والحمد لله رب العالمين.

الفصل السادس

أمراض الفكر في العالم الإسلامي*

استنزاف الذكاء الإسلامي:

طالما كان يقلقني أن شباب العالم الإسلامي الأذكياء المتفوقين في الدراسة كانوا يتجهون إلى دراسة الطب الجسدي في كليات الطب، فكانت كليات الطب، وكذلك كليات شبيهة بها مثل الهندسة، تقوم بعمليات استنزاف للذكاء الإسلامي، وكان الذكاء الإسلامي لا يتوجه للدراسة الإنسانية النفسية الاجتماعية الفلسفية التاريخية إلا كالمغلوب على أمره، ومن بعض متوسطي الذكاء أو مَنْ دونهم، وقد جعلنا هذا الوضع نرى أساتذة كباراً في الطب الجسدي من المسلمين في أرفع المعاهد الطبية في جميع أنحاء العالم، بينما لا نلقى من هو مبرز في العلوم الإنسانية إلا النادر من الطلاب، فضلاً عن أن نرى فيها أساتذة مبرزين كباراً.

ولا أعزو هذا النجاح والتقدم في ذاك الجانب، والتأخر والتخلف في الجانب الآخر إلى أسباب مادية أو مركز اجتماعي توفره دراسة الطب الجسدي، وإنما أعزوه إلى عدم التفطن إلى أن العلوم الإنسانية هي التي يمكنها أن تساهم في حل المشكلة الإسلامية أو الإنسانية، وذلك حتى لا أقول: إن شبابنا لا يحملون همَّ

(*) - كتب هذا البحث في كانون الثاني ١٩٩٣م، وأرسل إلى المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية.

تخلف المسلمين، وإنهم غير مستعدين للتضحية بأنفسهم وأمواهم في سبيل إعزاز أمتهم، فقد أثبتوا ذلك، وهذا طرف من الموضوع وهو بحاجة إلى دراسة.

و كنت دائماً أحاول تقريب مشكلة تخلف المسلمين بمثال الأمراض الجسدية؛ وكيف كان الناس يموتون بالأوبئة المختلفة التي كانت تأتي وتحصدهم، دون أن يعرفوا كيف جاءت، ولا كيف رحلت، فلما عرفوا قانون صحة الجسد، وعرفوا أسباب الأمراض الجسدية، وكشفوا الجراثيم والتخدير والمضادات الحيوية، تعافى الناس من الأوبئة والميتات الجماعية. وإنني أحس بأن آلام المجتمعات من الكراهية، والحروب الأهلية، والأحقاد، والارتياب، إنما هي أمراض اجتماعية لها أسبابها التي تشبه أسباب الأمراض الجسدية.

والقرآن الكريم ذكر المرض الجسدي في بعض آياته، ولكن جلّ اهتمامه كان منصباً على المرض الفكري النفسي، ولم يُعنى بالمرض العضوي للقلب وبما يصيبه منه، بل كان يقصد بمرض القلب: الجهل، والحيرة، والحقد، والتفسيرات الخاطئة للمشكلات البشرية. على هذا الأساس كان اهتمام القرآن بالأمراض الفكرية، وقد أعطاه الأولوية والتأكيد والتكرار والإلحاح للتأمل فيها وتدبرها.

إنني على جانب كبير من الثقة بأن الجهود إن بذلت وتوجهت إلى هذه الدراسات؛ فستكشف عوالم من القوانين والسنن التي يمكن تسخيرها لصالح الصحة النفسية الفكرية، كما كشف الناس القوانين والسنن التي أمكن التعرف عليها وتسخيرها لصالح صحة الجسد، الذي تتطور المعارف فيه وتكبر يوماً بعد يوم.

إن البواعث على التوجه إلى صحة الجسد هي أكثر انتشاراً ووضوحاً من البواعث التي تدفع إلى الشعور والإحساس بجدوى وضرورة طلب الصحة الفكرية، وليس ذلك ناشئاً عن شيء يرجع إلى طبيعة الإنسان الجسدية والوراثية والفطرية، بل عن مقدار تطور البيئة، ونوع التربية، والمناخ الفكري الذي يعيش

وإنما بشكل أفكار غير مرتبة، تؤول بعد عرض عدة أفكار إلى كشف علاقات ورؤى جديدة.

كيف سادخل في الموضوع؟ ومن أي طرف سأبدأ؟ هل أنا بحاجة إلى إثبات أن العالم الإسلامي مريض؟ وهل يمكن أن أعود إلى الوراء لأعلم متى بدأ هذا المرض، وكم عمره، ومتى كان ميلاده، وما المضاعفات التي حدثت له؟ هل بالإمكان كشف ذلك؟ هل بدأ هذا المرض في العالم الإسلامي حين سميت الخلافة العثمانية في القرون الأخيرة بالرجل المريض؟؟.

الكلمة والمعنى:

(في البدء كانت الكلمة)... هكذا ابتدأ يوحنا إنجيله، ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء ١٧١/٤]، والكون كلمة الله.

ميز سعيد النورسي بين تعريف الحرف، وتعريف الكلمة، فحرف الميم والراء والضاد كل واحد منها لا يدل على المرض، ولكن مجموعها يدل على المرض، وخرج بنتيجة أن دلالة الكون دلالة حرفية لا اسمية (كلمية).

ماذا تعني الكلمة؟ لم هذا السؤال؟

لأنني أشعر أننا ينبغي أن نبدأ من الصفر، لنضع من جديد قانون اللغة، قانون التفاهم والتواصل بين البشر. في البدء ينبغي أن نفهم الكلمة كشيء مركب، الكلمة لها أركان، وهي تؤدي دورها بأركانها الأربعة: المتكلم، السامع، المعنى، الكلمة. وهناك شيء خامس ضروري حتى تؤدي الكلمة وظيفتها، وهو اتفاق المتكلم مع السامع على المعنى المحدد المراد من الكلمة، وبدون هذا الركن الأخير لا يمكن التواصل بين البشر، وينقطع التفاهم بين إنسانين يتكلمان لغة واحدة،

ومن هنا يتنازع الذين يتكلمون لغة واحدة، لأنهم لا يقبلون كون المعاني معاني حتى تكون لها كلمات تعبر عنها، ولهذا فإنه ما لم يحصل اتفاق على العلاقات والسنن الوجودية فلن تؤدي الكلمات دوراً. الكلمات لا تُحقّق حقاً ولا تُبطل باطلاً، لكننا حين نتفق على المعاني فإننا سنجد الكلمات جاهزة لنقلها في كل حين، ولعل ابن خلدون أدرك هذا جيداً في مقدمته، وكذلك الإمام الغزالي حين قال في كتابه المستصفى من الأصول: ((فمن طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك، وكان كمن يستدبر الغرب وهو يطلبه، ومن قرر المعاني أولاً ثم أتبعها الألفاظ فقد اهتدى)). الكلمات مثل الأسلاك لها استعداد أن تنقل الطاقة، ولكنها لا تولد الطاقة.

والقرآن حين كان يقول على لسان معاصريه: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص ٣٦/٢٨]؛ لم يذكر أنهم كانوا يقولون هذا لأن كلمات القرآن غريبة عنهم، أو لأنها ليست عربية، وإنما لأنهم رفضوا المعاني التي كان القرآن يريد أن يبلغها إياهم بواسطة اللغة العربية، ومن ذلك قول الله تعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص ٥/٣٨]، لم يرفضوا الكلمات، بل رفضوا المعنى الذي يريد القرآن أن يبلغهم إياه. لم يكن النزاع على اللغة، بل على المضمون.

إن مشكلة العالم الإسلامي الآن هي مشكلة معنى ومضمون، وليست مشكلة نصوص وألفاظ، فأنا لا أعاني من مشكلة الكلمات، ولكنني أعاني من مشكلة تحرير المعاني، فهل أتمكن، يا ترى، من تحرير المعنى؟ مشكلة غاليليو لم تكن مشكلة كلمات، بل كانت مشكلة معنى فلكي، مشكلة شيء متصل بالفلك وليس متصلاً بالكلمة والنص.

وأرجو من الإخوة الكرام مستمعين وقرءاء أن يحرروا هذا المعنى، معنى ارتباط

الكلمة (النص) بالمعنى، لأن الكلمة ليست كالشمس، بل هي كالقمر تعكس المعنى ولا تشعه، وأكثر من ذلك فهي ليست عاكساً جيداً، لأنها تبدد الكثير من الضوء، ولكن مهما كانت هذه الوسيلة غير دقيقة فليس عنها بديل.

وللمساهمة في تحرير هذا المعنى يمكن مقارنة اللغة الأدبية بلغة الرياضيات، فاللغة الأدبية لا تمتاز بدقة لغة الرياضيات.

لغة السيف ولغة القلم:

أذكر أنه في الأربعينيات من هذا القرن أجريت مقابلة صحفية مع المفتي (أمين الحسيني)، وذلك في بدايات الصراع العربي الإسرائيلي، كان يقول: "إذا تكلم السيف فاسكت يا قلم". وهو بهذا يريد القول: العرب الآن يتكلمون بلغة السيف، فينبغي أن تصمت لغة الكلام!

متى بدأ العالم الإسلامي يتكلم لغة السيف؟ وما معنى لغة السيف؟

إن كل مشكلة يعاني منها المسلمون هي مشكلة إنسانية، ينبغي تتبعها إلى بدء الخليقة، أعني بدء خلق الإنسان كإنسان في الكون.

متى خرج الإنسان من الوجود الطبيعي للمادة والحياة إلى الوجود الإنساني؟ متى صار الإنسان خلقاً آخر وانفصل عن بقية الموجودات؟

دون أن أدخل في كيفية خلق الإنسان المادي أو المعنوي، ودون الدخول في تفصيل عرض هذا الموضوع بلغة الكتب المنزلة، أو الأساطير الموروثة، أو البحث العلمي. أريد أن أعرف ما هو رأي القرآن في هذا، فهل أشار إلى هذه القضية الجوهرية؟

لقد حسم القرآن موضوع معرفة كيفية انبثاق الوجود الإنساني؛ بل وسائر الموجودات الأخرى، حين حدد المرجع الذي يُرجع إليه لمعرفة الموضوع كله

في الشجرة التي اكتسبت معنى الحرمة.

لا بد من الخضوع والسجود لهذا المعنى الجديد، فمن لم يسجد لهذا الخلق الجديد ينبغي أن يُطرد ويُخرج من الجنة التي وجد فيها الحرام..

وإذا أردنا أن نفهم صعوبة التكيف مع المراحل الجديدة، فلتأمل الولادات الجسدية التي تحدث أماناً، فالطفل يعيش في الرحم، ثم يقذف به بعنف إلى الوجود الخارجي خارج الرحم، خارج القرار المكين الناعم الدافئ، الذي لم يكن يبذل فيه أي جهد وحيث كان يتلقى غذاءه وشرابه من جسد أمه.

حين يقذف الوليد خارج الرحم يواجه المشكلات العصبية، ويضطر إلى التكيف مع الحياة الجديدة، فيستخدم أعضاء لم يكن يستخدمها من قبل، إذ عليه أن يتنفس ويتغذى لأول مرة. في هذه المرحلة الانتقالية يصعب التكيف، وترتفع نسبة الوفيات، فهل يمكن لنا أن نتأمل مشكلة التكيف مع معنى الولادة الفكرية الجديدة، حين نحتاج إلى استخدام أساليب جديدة في التنفس الفكري والغذاء الفكري؟

إن الأسلوب الرحمي لم يعد ممكناً، ومن أراد أن يعيش العهد الجديد فعليه أن يتكيف معه، وعليه أن يسجد لهذا الخلق الجديد: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر ٢٩/١٥]، وإلا فالخروج... والرحم... واللغة... والصغار... ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر ٣٤/١٥-٣٥]، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف ١٣/٧].

ألم يرفض العالم الإسلامي التكيف مع العالم الجديد؟

أليس هو الذي انتهك حرماته ورفض الخضوع لحدوده؟

أليس المسلمون اليوم هم المتكبرين عن قبول حدوده؟ أليسوا هم أيضاً الذين أخرجوا صاغرين وكتبوا في الأذلين من دون الناس أجمعين؟!

هل يحق لي أن أقول: إن العالم الإسلامي رفض معنى الحرام، ومعنى السجود للحرام، والخضوع له، ورفض الخضوع للقانون، ورفض أن يكون هناك قانون يسلّم به الجميع، ويخضعون له، وإنهم صاروا خارج الوجود البشري؟؟!!

في معنى القانون والحرام:

ما معنى القانون والحرام؟ لابد من دراسة هذا الموضوع دراسة شبيهة بدراسة الفيزياء والكيمياء الحيوية والمملكة الحيوانية وبيولوجيا الإنسان، فالهيدرجين طاقة بمحمدة ويتحول إلى هليوم، ثم يرقى ليشكل بقية العناصر، باعتبار أن كل عنصر يتشكل بزيادة بروتون جديد، والبروتون هو نواة الهيدرجين، هكذا تدرس المركبات الكيميائية، وهكذا يجب أن ندرس الحياة، ثم الفكر.

إن لكل وجود من هذه الوجودات سنناً وقوانين، وقد كان اهتمام القرآن منصرفاً إلى تأمل هذا الوجود وسننه، وخاصة سنن الذين خلّوا من قبل، سنن الإنسان والأقوام والبشر جميعاً، ومع الأسف فإن مشكلة الإنسان والقانون والحرام لا تدرس بموضوعية وعمق، بما يشبه دراسة الظواهر الفيزيائية والكيميائية وعلم الخلية.

إن الذين ينزهون الحياة الإنسانية عن الدراسة التحليلية، والسنتية الثابتة؛ يظنون أنهم يقدسون الحياة الإنسانية ويرفعون من قدرها، ولكن لا يشعرون في الوقت نفسه كم يسيؤون إليها حين لا يخضعونها للتحليل الدقيق، وينسون أيضاً ما يحدثه الإهمال والإبقاء على هذا الغموض المقدس، ولا يعلمون لصالح من يكون هذا التقديس الغامض!!..

قيل قديماً: (إنه يصيد في الماء العكر)، نعم إن عدم السعي إلى الوضوح يمكن من الصيد في الماء العكر، فتجبر الأمور لصالح الدنس، بينما يكون التحليل الدقيق، والتفكيك العميق، والوضوح الرائق لصالح المقدس.

ما معنى القانون؟ ما معنى الحرام (الأمر والنهي)؟ ما معنى الخلق الآخر الذي له قانونه الخاص دون جميع المخلوقات؟

الإنسان هو الخلق الآخر ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون ١٤/٢٣]. كيف نفكك معنى القانون (السنة)، ومعنى الحرام؟.

أنا لست مختصاً في القانون والدستور، ولست مختصاً في علم النفس التحليلي أو السلوكي، ولم أدرس بدقة فرويد أو بافلوف أو سكينر، وربما ساعدني ذلك على التحرر فهماً، ولكننا نعيش رغماً عنا فكرة الحرام وفكرة القانون سواء تحت ضوء الوعي أم في اللاوعي، والآن كيف نحول هذا الموضوع إلى وعي مضى؟

كلما التقى إنسانان فإن معنى الحرام والقانون يتولد تلقائياً، فإذا دخلت غرفة ولم تجد فيها أحداً فلك الحق أن تجلس في أي مكان، إذ الأمكنة مباحة، أما إذا دخلت غرفة ووجدت شخصاً جالساً فيها قبلك، أو عدة أشخاص، حرمت عليك الأماكن التي يجلس فيها أشخاص مثلك، فلا يجوز لك أن تستولي على مكان أي منهم، أو تجلس فوقه. وهذا المثال التبسيطي يقرب لنا معنى الحرام الجزئي ذري.

ويمكن أن يساعدنا على فهم هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب ٧٢/٣٣]. وهذا رمز على الواقع

بوعي ووضوح، وإذا كان لديهم بعض العذر فنحن ليس معنا أي عذر بعد أن رأينا آيات الله في الآفاق والأنفس.

علينا، بعد أن رأينا تاريخ البشر، أن نسأل ماذا حدث؟ والجواب أن الذي حدث هو أن السلطة تُنال بالقوة، بالسيف، وهنا نلتقي بالسيف مرة أخرى، سيف أمين الحسيني، ولعل ابن خلدون كان الوحيد الذي بحث هذا الموضوع، ووضع الاسم الذي يقابل الرشد، فابن خلدون هو الذي وضع مقابل حكم الرشد والدين والإيمان والله: حكم العصبية!!.

إنه شيء مهم علينا أن نتابعه، ونبحث إمكانية تحويل العصبية، فبدل أن تتعصب للقبيلة والعشيرة تتعصب للحق، إن جاز التعبير، وهذا ما لم يكن في مقدورهم التفكير به، ولعل الحكمة من ذلك أن يظل الرسول ﷺ معجزة سننية، معجزة لا بمعنى أنها خارقة للعادة كما فسرها علماء الكلام، ولكن معجزة سننية، من دون خوارق، بل بسنة واضحة متألفة.

كان على المسلمين، ولا يزال عليهم، أن يبحثوا معاني الرشد، وأن يدققوا بالبحث الجوهري، ليتبينوا الشيء المقابل للرشد المسكوت عنه، فبضدها تتميز الأشياء.

اعتبر المسلمون عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين عهداً خارقاً، شأناً إلهياً، وهدية ربانية، وعدوه بذلك غير قابل للاهتمام والاعتداء والإعادة. لم يروا فيه شأناً سننياً بشرياً قابلاً للمعرفة، ويمكن الإعادة، وغاب عنهم أنه بدون هذا لا يكون الرسول ﷺ وأصحابه قدوة قابلة لأن يقتدى بها، لأنهم خارج القانون.

بعد عهد الرشد لم تعد السلطة للحق والعدل والإيثار، بل صارت للاستئثار والأخذ بالقوة، وصارت القاعدة الناعمة هي: ((فإن هلك هذا فالخليفة هذا،

ومن رفض هذا فله هذا، ويرفع السيف)) وملتقى مرة ثالثة بسيف الحسيني.

هنا ضيّعت الأمانة، هنا رجع الإنسان إلى عهد الظُّفْرِ والناب، ودخل عهد الفساد وسفك الدماء، وحدث بهذا التحول شيآن خطيران جداً وهما: الأول: ظنُّ المسلمين أن إعادة الصواب والرشد تكون بالأسلوب نفسه الذي زال به، أي بالسيف. والأمر الثاني الخطير هو نسيان الجهد الذي بذله الرسول ﷺ في الوصول إلى السلطة دون عنف ودون سيف، لأنهم ظنوا أن سلوك هذا الطريق لم يعد ممكناً مرة أخرى، وأنه عهد نسخ ولن يعود أبداً، وبذلك لم يعد لنا في رسول الله أسوة حسنة. إنه شيء فات أوانه ولا يشكل لنا سنة أبدية نهتدي بها كلما ضللنا الطريق.

إن هذين الخطأين كانا خطأين مميتين، بل ولا يزالان يمنعان المسلمين من اللحاق بالعالم، فضلاً عن أن يعيدوا تجديد دعوتهم لإعادة البشرية إلى عهد الأمانة.

بهذين الخطأين المستبطين لم يعد المسلمون يستفيدون من القرآن، ولم يعد القرآن مهجوراً فحسب بل إن سنة رسول الله ﷺ أصبحت منبوذة خلفهم ظهرياً أيضاً.

وننتج عن هذين الخطأين القاتلين خطأ ثالث وهو أن المسلمين حين آمنوا بأن القوة هي التي تعيد الحق إلى نصابه، استخفوا بقول الحق، وجعلوا أهميته، ولم يروا أنه الأساس الذي يلجم القوة الغاشمة، ولم يفتنوا إلى أن شريعة الغاب لا تزال بشريعة الغاب، وظنوا أنه لا مانع من مقابلة الخيانة بالخيانة بدل مقابلة الخيانة بالأمانة، وهكذا ضاعت الأمانة وضاع معها كل الأمن الاجتماعي.

نتج عن هذه التصورات أن الجهود توجهت إلى توفير القوة والسيف الذي

بدأ العلاج من نقطة الصفر، ومن طرف واحد، ولم يكن له رأسمال إلا الحق المبين يلتزمه في أحلك الظروف وأقساها، كان يثق بالفطرة الإنسانية، وبأنها قابلة للانتصار بالحق الواضح المنير، وليس بالقهر والقسر.

وأمر آخر ينبغي أن نلفت الانتباه إليه وهو: أن قول الحق لم يعد له أصحاباً في التاريخ الإسلامي، إلا أنهم لم يصلوا إلى درجة تشكيل قوة سلمية يُعتد بها في إقامة الحق الضائع، وإنما كان حال أحدهم كالمنتحر بإعلانه المعارضة، وكأنه يعرض نفسه للموت المحتّم، فاختلط قول الحق بتدبير الخطط للانقضاض على الباطل وقتله واقتناص الحكم من بعده، وعلى المسلمين الآن أن يزيلوا هذا الالتباس والارتباط بين قول الحق وإزالة الباطل بالاعتداء عليه، كذلك أرى أن نكشف شيئاً آخر من الأمور اللامفكّر فيها وهو أن الإسلام، بحسب ما أفهم، منع الوصول إلى السلطة بالقوة، ولم يُجزّه إلا بالتراضي، هذا ما فعله رسول الله ﷺ حين صبر صبراً أولي العزم من الرسل وهو سيدهم، إلا أن المسلمين فهموا أن هذا خصوصية لرسول الله ﷺ وللعهد المكي، وبهذا التخصيص فقد المسلمون أعظم كنز نزل من السماء ونبت في الأرض، ولم يفتنوا إلى أن الرسول ﷺ كان حريصاً جداً على أن يبين للمسلمين الذين يأتون من بعده أن عليهم ألا يحاولوا الوصول إلى الحكم بالقوة، وألا يقاوموا الذين وصلوا إلى السلطة بالقوة، وأمرنا أن نعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن نعض على جذع شجرة، بل أمرنا أن نتلف أسلحتنا، وأن نلتزم بيوتنا!!..

إنه كان ينظر من وراء الغيب حين كان يقول: ((اكرسوا قسيكم، واقطعوا أوتارها، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل - يعني على أحد منكم - فليكن

النصيحة، النصيحة التي لا تضر الغدر، النصيحة الخالصة التي يخص بها الإنسان أحب الناس إليه، بل يؤثره بها على نفسه، إنه لا يضر له الغدر والخيانة، ولكن يصدقه النصيحة، ويرشده إلى الخطأ. متى يصبح لدينا علماء نفس وصوفية، وأناس ربانيون يكشفون لنا أن طريق الصدق يهدي إلى البر، وأن البر يهدي إلى الجنة، وأن الكذب يهدي إلى الفجور، وأن الفجور يهدي إلى النار؟

أزمة العلاقة بين الدين والسياسة:

من هنا نفهم أزمة العلاقة بين الدين والسياسة، الدين المبني على الصدق والأمانة، والسياسة المبنية على الكذب والخداع والخيانة، فحتى العوام من المسلمين فهموا أن الدين والسياسة متناقضان تماماً، فهل يمكن فهم أن السياسة أيضاً يمكن أن تبنى على الصدق والأمانة؟

إذا كان عوام المسلمين يرون التناقض حتماً بينهما، فإن الإمام محمد عبده، لم يزد على ذلك، حين لعن السياسة والسياسيين وكل مشتقات لفظة سياسة.

اعتقد أننا لسنا بحاجة إلى لعن أحد، حين نؤسس قاعدة جديدة لسياسة جديدة، فنضع ثقتنا بالصدق والأمانة، ولو من طرف واحد، ونبذ الكذب والخيانة بطمأنينة. إن رؤية هذا الموضوع بوضوح يجعل العمل غير قابل للانتكاس أبداً ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة ٢١/٥٨].

سأل أحد أتباع الحكيم الصيني كونفوشيوس أستاذه عن قوام السلطة أو الملك فأجاب: يجب أن توفر السلطة ثلاثة أشياء:

١ - لقمة العيش الكافية لكل فرد.

٢ - التجهيزات العسكرية الكافية.

٣ - القدر الكافي من الثقة.

وعندما سأله التلميذ: وإذا كان لابد من الاستغناء عن أحد هذه الأشياء الثلاثة فبأي شيء نضحّي؟ فرد الأستاذ: بالتجهيزات العسكرية، وعاد التلميذ وسأل: وإن كان لابد من الاستغناء عن أحدهما أيضاً فعن أيهما نستغني؟ فأجابه: في هذه الحالة نستغني عن القوت، لأن الموت كان دائماً مصير الناس ولكنهم إن فقدوا الثقة لم يبق أي أساس للدولة!!..

مشكلة شراء الأسلحة وتكديسها:

دعونا نفكر قليلاً في بعض مظاهر حياتنا، إننا منذ سنين طويلة نشترى السلاح، ونعود لشرائه من جديد، دعونا نسأل سؤالاً آخر وهو: هل يمكن أن يبيعك عدوك، أو يسمح أن يصل إليك سلاح يمكنك أن تضره به؟ أنا لا أصدّق هذا، ولكن لماذا نفعل هذا؟ إن هذا السلاح شبيه بالخذف (الرمي بحصيات صغيرة بالأصابع) الذي نهى عنه رسول الله ﷺ وقال: ((إنه لا يقتل الصيد ولا ينكأ العدو وإنه يفتأ العين ويكسر السن))^(١) لا شك أن الأسلحة التي نشترىها لن تفقأ عين العدو، فضلاً عن كسر سنه، ولكنها ستفقأ عيون المسلمين، وتخرب ديارهم، كما فعلت بإيران والعراق وباكستان والعرب جميعاً!! إنهم يتسلحون بالصواريخ والغواصات، وأنا بأفكاري الغريبة ربما أقول: إنها لن تقتل غير المسلمين، وبمجرد أن تصبح خطراً على مستغلي العالم الإسلامي، فسوف تُدمّر في أمكنتها على الأرض، أو في قاع البحر، وفي ساعات قليلة، وقد حدث هذا، وسيحدث مرات ومرات، وسوف يستمر مادامت تصوراتنا كما هي.

إن السبعة الكبار في العالم تقاسموا السوق العربية والإسلامية، فبكين

(١) - أخرجه البخاري في الأدب باب النهي عن الخذف (٥٨٦٦)، ومسلم في الصيد والذبائح باب إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو وكرهه الخذف (١٩٥٤)، كلاهما عن عبد الله بن المغفل.

وموسكو تباع الأسلحة لبعض الأطراف الإسلامية، وأمريكا والدول الغربية للطرف الآخر، أما اليابان فتبيع بدل السلاح السيارات والفيديو والكاميرا والتلفزيون، ما أبدعها من سوق استهلاك، وما أعظمها من سوق مواد خام بأسعار بخسة زهيدة!!!...

والآن ما هو الحل؟ وما هو البديل؟ إنها ليست موعظة لصاحبي المال والشرف اللذين شبههما رسول الله ﷺ بالذئبين الجائعين أرسلنا على غنم!! لكنها لأولئك الذين يقفون على المنابر في كل مكان ليتحدثوا إلى الناس الذين ليس لديهم مال أو جاه يخافون من ضياعه، وللذين يمسكون بالأقلام ليكتبوا، عليهم أن يتبصروا بأوضاع العالم الذي نعيش فيه، وأن يعلنوا أن علينا، ألا نفرح بالأسلحة التي تشتري، لأنه مكتوب عليها قبل أن تخرج من رحم أمها أنها لا تضر صانعها!!! ثم هناك شيء آخر موجود في عالمنا الذي نعيش فيه، ولا نعتبر به، ونشعر أننا لسنا بحاجة إلى أن نقرأه في الكتب، رغم أنه، يحدث تحت سمعنا وأبصارنا، وهو أن الأسلحة التي استولت على شغاف قلوبنا، لم تستطع أن تحمي الاتحاد السوفيتي من الانهيار، رغم أنه يملك ما يستطيع أن يدمر به الكوكب الأرضي وما على ظهره من حياة نباتية وحيوانية وإنسانية ولعدة مرات!!! كما أنه لم يمنع اليابان كونها لا تملك السلاح النووي، أن تصبح في مقدمة الدول الصناعية السبعة التي تقود العالم اليوم!! أي أنه لا امتلاك السلاح الأعظم، ولا عدم امتلاكه في هذه الأمثلة العملاقة التي تفقأ العين كان هو الذي كسر ميزان الصعود والنزول!!

إن السلاح لم يعد يهدد إلا الحمقى والمغفلين في العالم....

إن كشف الحقائق ليس جريمة ومع ذلك يمكن أن يعرض صاحبها للموت!! ولا حرج في هذا، فلننحش مثل بلال لنقل: أحد.. أحد.. ولنمت مثل ياسر وسمية

وقد جعله الرسول ﷺ ذروة سنام الإسلام، ولكن في هذا التراث بالذات ذم لنموذج من الجهاد سمي فيما بعد بالخروج وسمي ممارسوه بالخوارج، ولعل التسمية مستمدة من قوله ﷺ: ((يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية))^(١).

وقد كانوا كذلك، راجع مثلاً خطبة أبي حمزة الخارجي في وصف عبادة الخوارج.

هذان الموضوعان لم أر أحداً من المسلمين بحثهما، وذلك كأن يضع بحثاً في المقارنة بين جهاد رسول الله ﷺ وجهاد الخوارج، ولم يذكر أحد من الباحثين هذا الأمر - حسب اطلاعي - وحتى لو وجد في بطون الأوراق شيء منه، فليس في أذهان العلماء شيء من هذا قط، وكنت مضطراً لأن أبحث هذا الموضوع، فتبين لي أن المسلمين أجمعين صار فهمهم للجهاد متطابقاً مع فهم الخوارج، وبعيداً عن ممارسة رسول الله ﷺ، وإن كانت الروايات تقول بوجود جهاديين. على كافة الأحوال فإن الشروح لم تكتب إلا بعد زوال عهد الراشدين والرشد بوقت طويل، ولهذا سهّل عليهم أن يتجاهلوا الفرق بين الجهاد عند المسلمين جميعاً وبين مفهوم الخوارج للجهاد.

ألا فليفرح بقايا الخوارج أو المذهب الخارجي لأن العالم الإسلامي كله تحول

(١) - أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب: إثم من رأى بقراءة القرآن أو تأكل به، رقم (٤٧٧١)، ومسلم في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤) وغيرهما.

